
بسم الله الرحمن الرحيم

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الحاج لخضر

بـــاتنة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية وآدابها

# أشكال التواصل في التراث البلاغي العربي

## - دراسة في ضوء اللسانيات التداولية -

مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في لسانيات الخطاب

**إعداد الطالب:**

سليم حمدان

**تحت إشراف الدكتور:**

محمد بوعمامة

**السنة الجامعية 2009/2008**

لقد عني الباحثون بدراسة اللغة وفقًا لاتجاهين رئيسيين: الاتجاه الشكلي، الذي قعّد العرب من خلاله لعلمي النحو والصرف، وتمثّل عند الغربيين في اللسانيات الصارمة، التي تعنى بدراسة النظام اللغوي، معزولاً عن سياق التواصل الاجتماعي.

وهناك اتجاه آخر، وهو الاتجاه التواصلي الذي يدرس اللغة من خلال المنجز اللفظي في سياق معيّن، وقد تمثّل هذا الاتجاه في مناهج كثيرة منها: تحليل الخطاب، اللسانيات الاجتماعية واللسانيات التداولية.

ورغم تعدد هذه الدراسات وتركيز كل منها على جانب معيّن، إلاّ أنَّها تشترك كلّها في إطار عام وهو الإطار التواصلي، إذ يحاول الباحثون تحديد فعل التواصل، وكيفية حدوثه، والاستراتيجيات التي يوظفها المرسل للتواصل مع الآخرين، وذلك انطلاقًا من أنَّ التواصل نشاط اجتماعي يتمُّ بين طرفين أو أكثر، وحتى بين الفرد وذاته، ومن هنا تعدّدت أشكال التواصل فكانت أربعة: التواصل الذاتي، التواصل الشخصي، التواصل الاجتماعي والتواصل الثقافي، ويقوم كل شكل على عناصر محدّدة، قد يَشترك بعضها في جميع الأشكال.

كما انتبه العلماء العرب إلى الوظيفة التواصلية للغة، من خلال تعريفهم لها حيث أعطوها السمة الجماعية، والضرورية في حياة الإنسان، إذ يستطيع هذا الأخير الاستغناء عن أشياء كثيرة، لكن لا يستطيع الاستغناء عن اللغة باعتبارها جزءًا من حياته.

ولعلَّ من أهم الأسباب التي دفعتني لاختيار هذا الموضوع هو أن اللسانيات التداولية أضحت أظهر فروع اللسانيات الاجتماعية، وارتقت إلى أن تكون من أهم العلوم اللسانية برمتها، بالإضافة إلى اهتمامي بتقصِّي التراث العربي ومحاولة الكشف عن أغواره دون تمحّل أو تحيز، بل عن طريق الإثباتات العلمية المؤسَّسَة.

ولهذا رأيت أن أبحث في جذور البلاغة العربية عن أشكال التواصل، وكيف عالجها البلاغيون العرب، وجاء تحديدي للتراث البلاغي العربي بمثابة حصر للموضوع وإلاّ تناثرت أطرافه بين التراث البلاغي للغات و أمم أخرى، حيث حصرت البحث في أشكال التواصل في التراث البلاغي العربي، وهذا بالتعرض إلى كل شكل على حده. ثم انتقلت به من التراث إلى المحدثين، وركزت في ذلك على المصطلحات الواردة في التراث.

وقد بدأت بحثي هذا بفصل تمهيدي وضحت فيه مفهوم التواصل في التراث أوّلاً ثم عند المحدثين.

ثم قسمت البحث إلى ثلاثة فصول حيث كان عنوان الفصل الأوّل "التواصل الذاتي"، والذي وضحت فيه مفهومه والعناصر التي يقوم عليها، ثم انتقلت إلى وجوهه الثلاث التي فصَّل فيها البلاغيون، وهي: الاعتبار الذي ينطلق من تفكّر الإنسان وتدبّره فيما حوله، ليتحوّل إلى الاعتقاد – وهو الوجه الثاني- إذا ما أصبح معرفةً وعلمًا، أما الوجه الثالث فهو الصمت، ويقصد به الصمت الايجابي الذي غايته الإنصات.

ومنه انتقلت إلى الفصل الثاني الذي عنونته بـــ " التواصل الشخصي" وهو الذي يكون بين متخاطبين حاضرين، وبعد أن بينت مفهومه وعناصره انتقلت إلى البيان باللسان ثم البيان بالإشارة كآليَّتين من آلياته، ثم وضحت ضرورة السياق في العملية التواصلية ثم الإقناع والتواصل باعتبار أنه غاية من غاياته.

أمّا الفصل الثالث فهو: " التواصل الاجتماعي"، الذي بدأت كذلك بمفهومه وعناصره ثم انتقلت إلى الخطابة باعتبارها أحد أوجه التواصل الاجتماعي، كما أنَّ البلاغيين كذلك ركزوا عليها من جانبي الإفهام والإقناع اللذين تطرقت لهما تحت عنصر الخطابة، ومنها تناولت مطابقة الكلام لمقتضى الحال، لأخلص إلى عيوب الكلام والتواصل، الذي تناولت فيه (ما يتعلق بالنطق/ الفصاحة في اللفظ والكلام/ اللحن/ ما يتعلق بشخصية الخطيب).

وبعد هذه الفصول الثلاثة خلص البحث على خاتمة تناولت فيها أهمَّ النتائج التي توصّل إليها البحث.

وتجدر الإشارة إلى أنّني وددت إضافة فــصل رابع وهو: " التواصل الثقافي"، إلاّ أن قلة المادة التي وقفت عليها حالت دون ذلك، رغم أن هذا الشكل من التواصل محقق فعلاً في الواقع، إلاّ أنَّ البلاغيين العرب لم يتطرقوا إلى أغلب عناصره ووجوهه إلاّ بعضها كالبيان بالكتاب، والمثل.*

ولما كان المنهج المتّبع في الدراسة بمثابة الطريق والدليل في الرحلة، فقد اعتمدت المنهج الوصفي، وذلك باستقصاء ما جاء في التراث من أشكال التواصل ثم وصفها وتحليلها مع مقارنتها بما جاء عند المحدثين.

وقد اعتمدت في هذا البحث على مجموعة من المصادر والمراجع أهمها كتب البلاغة العربية ككتاب: البرهان في وجوه البيان لابن وهب (عاش أوائل ق 4 هــ)، والبيان والتبيين للجاحظ (توفي 255 هــ)، وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي (توفي 466 هــ)، ودلائل الإعجاز للجرجاني (توفي 471 هــ)، ومفتاح العلوم للسكاكي (توفي 626 هــ)، وغيرها من كتب التراث البلاغي، هذا بالإضافة إلى مجموعة من الكتب الحديثة سواءً العربية أو المترجمة.

وككل بحث لم يخلُ هذا الأخير من صعوبات خاصة في الحصول على أهم المراجع والمصادر، من بينها كتاب البرهان لابن وهب، إضافة إلى بعد المسافة، مما جعل اللقاء مع الأستاذ المشرف يقل عما كنت أودّه.

وطبعًا يظل الفضل الأول في إنجاز هذا البحث لله عز وجل، ثم لأستاذي المشرف الذي ترك بصمة بارزة في هذا الإنجاز، فله كل التقدير والاحترام.

وأخيرًا أسأل المولى جلّ وعلا التوفيق.

* من ذلك ما ذكره الجاحظ: « القلم أحد اللسانين... وقالوا: القلم أبقى أثرًا واللسان أكثر هذرًا » (البيان والتبيين ج1 ص 79/ وينظر أيضًا ص 80).
ويقول ابن وهب: « أمَّا الأمثال فإن الحكماء والعلماء والأدباء لم يزالوا يضربون الأمثال ويبينون للناس... ويرون أن هذا النوع من القول أنجح مطلبًا وأقرب مذهبًا » (البرهان ص 117).

# الإهـــــداء

إلى روح جدِّي الطاهرة

إلى الوالدين الكريمين، محبَّة وتبجيلا

إلى إخوتي وأخواتي

إلى كل محبٍّ للغة القرآن الكريم

أهدي هذا البحث.

# تشكــــر

أتقدم بجزيل الشكر والامتنان إلى أستاذي المشرف الدكتور:

محمد بوعمامه الذي لم يدَّخر جهدًا ماديًّا أو معنويًّا في سبيل

إنجاز هذا البحث.

كما أعبِّر عن شكري وتقديري للأستاذ: صالح هزله الذي قدّم

لي كل المساعدات.

وإلى كل من ساهم في إخراج هذا البحث من قريب أو بعيد.

# الفصـــل الأول

# التواصـــل الـــذاتي

**توطــئة**

**I - مفهوم التواصل الذاتي وعناصره**

**II - وجــوهــه**

# الفصل الثاني

# التـواصــل الشخصــي

توطــئة

I - مفهوم التواصل الشخصي وعناصره

II – الــبيان باللســان

III – البيــان بالإشـــــارة

IV السيـــاق والتواصـــل

V – الإقـــناع والتـــواصل

# الــفصل الثـــالث

# التواصـل الاجتماعـــي

توطــئة

I - مفهوم التواصل الاجتماعي وعناصره

II- الــخطابــة

III- مطابقة الكلام لمقتضى الحال

IV - عيوب الكلام والتواصل

# تمهيـــد

# مفهـــوم التواصـــل

تــوطــئة

I - مفهوم التواصل في التراث

II – مفهــوم الــتواصل عنــد المحــدثين

# قائمة المصادر والمراجع

## تــوطــئة:

من المعلوم أن الإنسان أرقى أنواع الحيوان، وأوسعها إدراكًا، وبسعة إدراكه كثرت حاجاته كثرة لا يستطيع الاستقلال بها وحده، فاحتاج إلى التعاون مع بني قومه، ولكن هذا التعاون يحتاج إلى واسطة للتواصل، فكانت هذه الواسطة هي اللغة، فباللغة يحدث التواصل، وبالتواصل يعرف كل فرد ما عند الآخر، وبهذه المعرفة يتحقق التعاون بين الأفراد.

ولعلَّ الكثير يظنّ أن التواصل كعلم، لم يظهر إلاّ في العصر الحديث مع كوكبة من علماء الإتصال، لينتقل بعدها إلى علم اللغة، الذي أقرَّ بأنه الوظيفة الأساسية للغة، بل إن دراسته عند الإنسان قديمة جدًّا، فكل من أفلاطون (347/427 ق.م) وأرسطو (322/385 ق.م) اعتبراه علمًا قائمًا بذاته [1]، كما لا يخفى علينا أن البلاغة العربية بذلت جهودا جبارة في دراسة اللغة وهي تؤدي وظيفتها الأساسية في المجتمع عن طريق اللغة العادية أو اللغة الأدبية الموجهة إلى طبقة معينة، وذلك عن طريق اعتنائهم بالبلاغة وعلومها (البيان، البديع، المعاني) إذ يرون بأن معرفة الإنسان بها تكفل صحة العملية التواصلية، التي تعرّف نظريًّا بأنها « العملية التي تنتقل بها أو بواسطتها المعلومات والخبرات بين فرد وآخر أو بين مجموعة من الناس وفق نظام من الرموز، وخلال قناة أو قنوات أو طرق تربط بين المصدر أو المرسل والمتلقي أو فئة المتلقين »[2]

ومع ذلك فلفظ التواصل « يظل على تداول الألسنة له وروده في قطاعات معرفية مختلفة، لفظا يكتنفه العموم والإجمال، إن لم يكتنفه الغموض والإبهام، ذلك لو أننا أعملنا فكرنا في استعمالاته المختلفة، لوجدنا أنه يدل على معانٍ ثلاثة متمايزة فيما بينها: أحدها نقل الخبر، ولنصطلح على تسمية هذا النقل بـــ: (الوصل) نظرًا لأن هذا الــمصطلح يفيد

---

[1] ينظر بلقاسم حمام - آليات التواصل في الخطاب القرآني- ص 11.
[2] أحمد محمد معتوق - الحصيلة اللغوية- ص 71.

الجمع بين طرفين (...) والثاني، نقل الخبر مع اعتبار مصدر الخبر الذي هو المتكلم، ولنطلق على هذا الضرب من النقل اسم (الإيصال) والثالث، نقل الخبر مع اعتبار مصدر الخبر الذي هو المتكلم، واعتبار مقصده الذي هو المستمع معًا، ولندع هذا النوع من النقل باسم (الاتصال) »[1]

لكن ما تتفق عليه الاصطلاحات الثلاثة (الوصل/ الإيصال/ الاتصال) هو قيام عملية التواصل على عناصر أساسية وهي (متكلم/ سامع/ رسالة/ قناة)، وعليه فإن هذه العناصر هي التي تكفل لعملية التواصل النجاح، مع وجود عناصر أخرى محيطة بها.

ومن هنا نخلص إلى تساؤل وجيه وهو: كيف حدّد القدامى مفهوم التواصل؟ وما مفهومه عند المحدثين؟

[1] طه عبد الرحمن – اللسان والميزان أو التكوثر العقلي- ، ص 254.

## I - مفهوم التواصل في التراث:

لقد ركز العرب في تعريف اللغة والبلاغة والبيان على خاصية التواصل، فابن جني (توفي 392 هـ)، يعرف اللغة بقوله: « أمّا حدّها فأصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم »[1] وهو بهذا يكون قد أعطى للغة سمة الجماعية، وهي سمة من سمات التواصل، إذ لا تكون اللغة لغة إلاّ إذا توفر فيها ملقٍ ومتلقٍ، وتكون صالحة للتعبير عن الأغراض في استمرارية.

وانحصرت وظيفة اللغة عند ابن سنان الخفاجي، في الوظيفة التبليغية، ويدل على ذلك قوله: « ومن شروط الفصاحة والبلاغة أن يكون معنى الكلام ظاهرًا جليًا لا يحتاج إلى فكر في استخراجه، وتأمل لفهمه (...) والدليل على صحة ما ذهبنا إليه (...) أن الكلام غير مقصود في نفسه وإنما احتيج ليعبر الناس عن أغراضهم ويفهموا المعاني التي في نفوسهم »[2]

إن في كلام ابن سنان إشارة إلى التواصل من خلال توجيه رسالة من متكلم إلى سامع، وذلك عبر قناة وهي (الكلام)، فالمتكلم لا غاية له بالكلام ذاته وإنما ليوصل عن طريقه رسالة إلى سامعيه، ومن هنا فإن عملية التواصل تقوم عند ابن جني وابن سنان - من خلال تعريفهما للغة- على عناصر أربعة (متكلم، سامع، رسالة، قناة)، كما يظهر أن الإنسان في حاجة للغة لأداء أغراضه. « وهكذا نجد أن حاجة الانسان إلى اللغة شرط من شروط تواصله مع الآخرين »[3]

---

[1] أبو الفتح ابن جني – الخصائص- ص 33.
[2] ابن سنان الخفاجي – سر الفصاحة- ص 220-221.
[3] محمد بوعمامة – اللغة والفكر والمعنى- ص 236.

كما يظهر مفهوم التواصل في التراث العربي، من خلال قول ابن سنان وهو في سياق حديثه عن البلاغة حيث يقول: « يكفي من حظ البلاغة ألاّ يؤتى السامع من سوء فهم الناطق، ولا الناطق من سوء فهم السامع »[1]

وهنا يركز الخفاجي على الوظيفة الإفهامية للغة، فمن أوفر حظوظها أنها فهم وإفهام بين المتكلم والسامع، كما أن العسكري (توفي 395 هـ)، يذهب إلى أن « البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه من نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن »[2]

يركز العسكري في تعريفه هذا، على إيصال المعاني بعد تمكنها في قلب المتكلم نفسه، فكأننا نراه يركز على تواصل المتكلم مع نفسه أولا وتفكيره فيما سيقول، وبعد أن يتمكن في نفسه المعنى يحاول إيصاله إلى المتلقي، وهذا وجه آخر من وجوه التواصل الذي يسميه المحدثون بالتواصل الذاتي.

وفسر ابن المقفع (توفي 131 هـ)، البلاغة تفسيرا لم يفسره غيره – على حد رأي العسكري- « إذ قال: البلاغة اسم لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة، منها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع (...) ومنها ما يكون خطبًا »[3]، وفي هذا القول تركيز على السامع والمتكلم معًا، لأنهما يمثلان طرفي التواصل.

ويركز السكاكي في تعريفه للبلاغة على شرط حسن التركيب حتى تقوم عملية التواصل على أسس صحيحة، فالبلاغة عنده « هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدّا له اختصاص بتوفيه خواص التراكيب حقها »[4]،

---

[1] ابن سنان الخفاجي – سر الفصاحة- ص 61. وقد أورده الجاحظ ونسبه لأبي مسلم الخرساني نقلا عن الإمام إبراهيم بن محمد، ثم يعقب بقوله: « أما أنا فأستحسن هذا القول جدًّا » (البيان والتبيين، ج1، ص 87).
[2] أبو هلال العسكري - الصناعتين- ص 19.
[3] نفسه ص 23.
[4] أبو يعقوب السكاكي – مفتاح العلوم- ص 415.

وذلك حتى يتمكن السامع من فهم الرسالة المنقولة إليه، بشرط أن يتساوى مع مخاطبه في درجة الفهم أو أن يخاطبه بحسب قدراته الذهنية ومكانته.

أمَّا سيبويه (توفي 180 هـ)، فنستخلص - من خلال تقسيمه للكلام من حيث الاستقامة- تركيزه على وصول المعنى إلى المتلقي، حيث قسم الكلام إلى، حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، ومحال كذب، وفصّل في ذلك قائلا:

« فأمّا المستقيم الحسن فقولك: أتيتك أمس، وسآتيك غدًا

وأمّا المحال فأن تنقض أوّل كلامك بآخره، فتقول: أتيتك غدًا، وسآتيك أمس

وأمّا المستقيم الكذب فقولك: حملت الجبل، وشربت ماء البحر ونحوه

وأمّا المستقيم القبيح، فأن تضع اللفظ في غير موضعه، نحو قولك: قد زيدًا رأيت، وكي زيد يأتيك، وأشباه هذا

وأمّا المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس »[1]

وهنا نلاحظ أن سيبويه، قد ركز على استقامة الكلام حتى يصل الملقي إلى ذهن المتلقي فالمستقيم الحسن هو الذي يفهم بطريقة بسيطة جلية من خلال حسن اللفظ، واستقامة المعنى، كما أن المستقيم الكذب مستساغ كذلك من حيث حمله على المجاز أمّا المستقيم القبيح، فإن السامع يصعب عليه فهمه، لأن الألفاظ في غير موضعها، وأما المحال الكذب، والمحال، فقد ينقطع فيهما التواصل لعدم استقامة الكلِمْ وهنا يبدو لنا اهتمام النحاة أيضا بالتواصل، لأن الغاية من اللغة هي إفهام السامع من خلال التعابير المستقيمة.

كما يظهر مفهوم التواصل في التراث العربي من خلال الإبانة عن المعاني، حيث يقول الجاحظ: « والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كـــان ذلك البيان، ومن أيّ جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنمـــا

(1) سيبويه – الكتاب- ج1، ص 25-26.

هو الفهم والإفهام، فبأيِّ شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع »[1]

إنّ الجاحظ بكلامه عن البيان؛ الذي يقصد به الإبانة بأيّ طريقة كانت، يكون قد حدد خمسة عناصر للعملية التواصلية وهي (المتكلم/ السامع/ الرِّسالة/ القناة/ الشفرة) فالرسالة تصل من متكلم إلى سامع، وغاية كلٍّ منهما الفهم والإفهام عن طريق اللغة، وأمّا الشفرة فهي (كشف قناع المعنى وهتك الحجاب).

بل إن الجاحظ أخرج التواصل من دائرته الضيقة التي تعتمد على المنطوق فقط، فجعل « جميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء، لا تنقص ولا تزيد، أولها اللفظ ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نصبة »[2]

فالتواصل – حسب رأي الجاحظ- لا يكون بالمنطوق فقط، بل يكون بالكتابة أيضا إذا كان المخاطب متعلما وهو الذي أطلق عليه (الخط)، أو يكون بالإشارة والإماءة، وقد يكون بالعقد أو الحال الناطقة بالدلالة التي سماها (النصبة) وهي الناتجة عن التأمل والتفكُّر.

وليس رأي صاحب البيان والتبيين ببعيد عن تقسيم ابن وهب، الذي يرى « أنّ البيان على أربعة أوجه، فمنه بيان الأشياء بذواتها وإن لم تبن بلغاتها، ومنه البيان الذي يحصل في القلب عند إعمال الفكر واللُّب، ومنه البيان باللسان ومنه البيان بالكتاب وهو الذي يبلِّغ من بَعُدَ وغاب »[3]

فإذا قارنّا هذا التقسيم الذي وضعه صاحب البرهان، لوجدنا « أنّ هذا العالم العربي الذي ألّف كتابه بعد عام 335هـ قد وضع لعلماء الإتصال تصنيفا علميًّا، قبل أن يضع

---

[1] الجاحظ – البيان والتبيين- ص 76.
[2] نفسه ج1، ص 76.
[3] ابن وهب – البرهان في وجوه البيان- ص 56.

رويش Ruesch وبيتسون Bateson تصنيفهما الرباعي، والذي يتفق إلى حدٍّ كبير مع تصنيف صاحب البرهان، حيث يذهبان إلى تقسيم الاتصال إلى أربعة أقسام »[1]. وهي: التواصل الذاتي، التواصل الشخصي، التواصل الاجتماعي، والتواصل الثقافي.

وهكذا اتضحت لنا رؤية العلماء العرب للتواصل، وكيف نظروا له من خلال اللغة باعتبارها (قناةً للتواصل).

كما لم يُغفلوا العناصر الأخرى، وهي: (الرسالة) والمتمثلة في الخبر المنقول بين (متكلم وسامع)، ويكون ذلك في سياق معين والذي سمته العرب (المقام) أو (مقتضى الحال) وفي ذلك يقول السكاكي: « لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة فمقام التشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية (...) وارتفاع شأن الكلام من باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به وهو ما نسميه مقتضى الحال »[2]

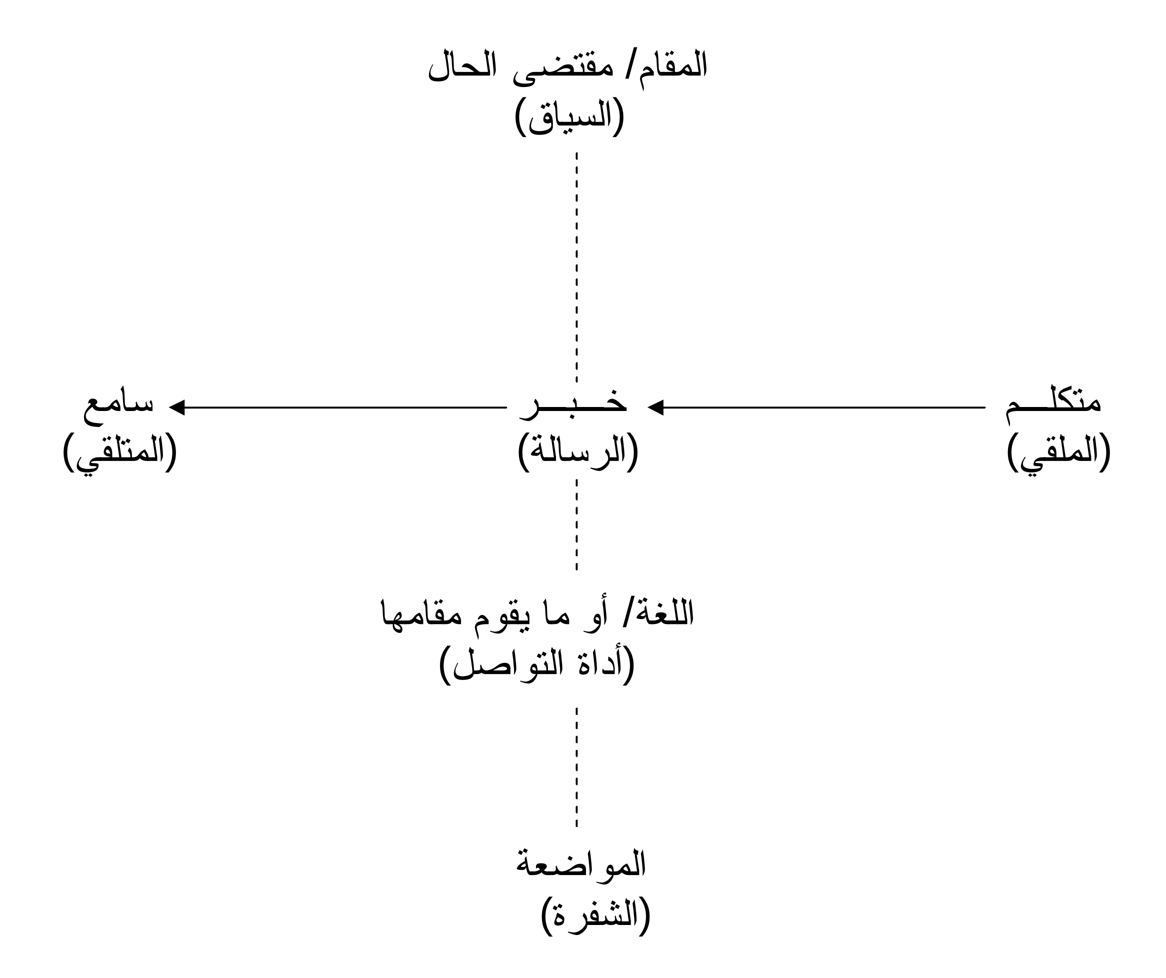
كما لم ينسوا (الشفرة) التي بها يضمن المتكلم وصول خبره سليمًا إلى سامعه، بل يضمن فهم السامع له، ولا يكون ذلك إلاّ إذا كانت هناك شفرة يتعارف عليها الطرفان لضمان وصول الإرسالية، فاللغة عندهم « عبارة عمَّا يتواضع عليه القوم من الكلام »[3]

ومنه نجد أن عناصر التواصل في التراث مكتملة، وهي ستة:

ملقي (متكلم)/ متلقي (سامع)/ رسالة (الخبر)/ قناة (اللغة أو ما يقوم مقامها)/ سياق (المقام أو مقتضى الحال)/ الشفرة (المواضعة).

---

(1) عبد العزيز شرف –علم الإعلام اللغوي- ص 11.
(2) السكاكي مفتاح العلوم، ص 168-169.
(3) الخفاجي - سر الفصاحة- ص 48.


المقام/ مقتضى الحال
(السياق)
متكلــم
(الملقي)
خــبــر
(الرسالة)
سامع
(المتلقي)
اللغة/ أو ما يقوم مقامها
(أداة التواصل)
المواضعة
(الشفرة)

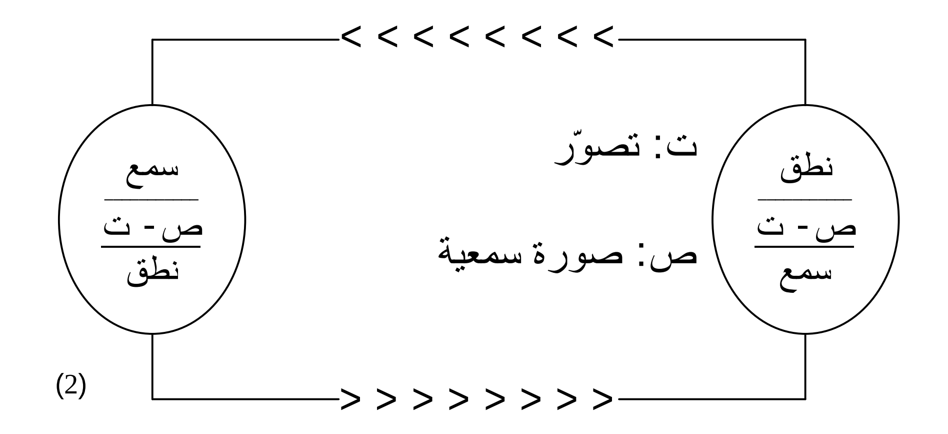
## II – مفهـوم الـتواصل عنـد المحـدثين:

حدّد علماء العصر الحديث العملية التواصلية من خلال تحديد عناصرها بطريقة أكثر علمية، واعتمادها كذلك على العلم، فقد « قدّم كلود شانون – وهو مهندس أمريكي كان يعمل في ميدان الاتصالات الهاتفية- خطاطة (...) تختصر من خلال خاناتها ونمط اشتغالها العملية التواصلية برمتها:

مصدر الخبر ←——— الباث ←——— الإشارة النهائية ←——— المتلقي ←——— الهدف

الإرسالية　　　　الإشارة المبثوثة　　　　الإرسالية »(1)

أما اللغويون، فقد وصفوا عملية التواصل من خلال تعريفهم للغة، إذ وصفها دوسوسير « بين (أ) و(ب) وهما يتبادلان حديثهما فيما بينهما على النحو التالي:



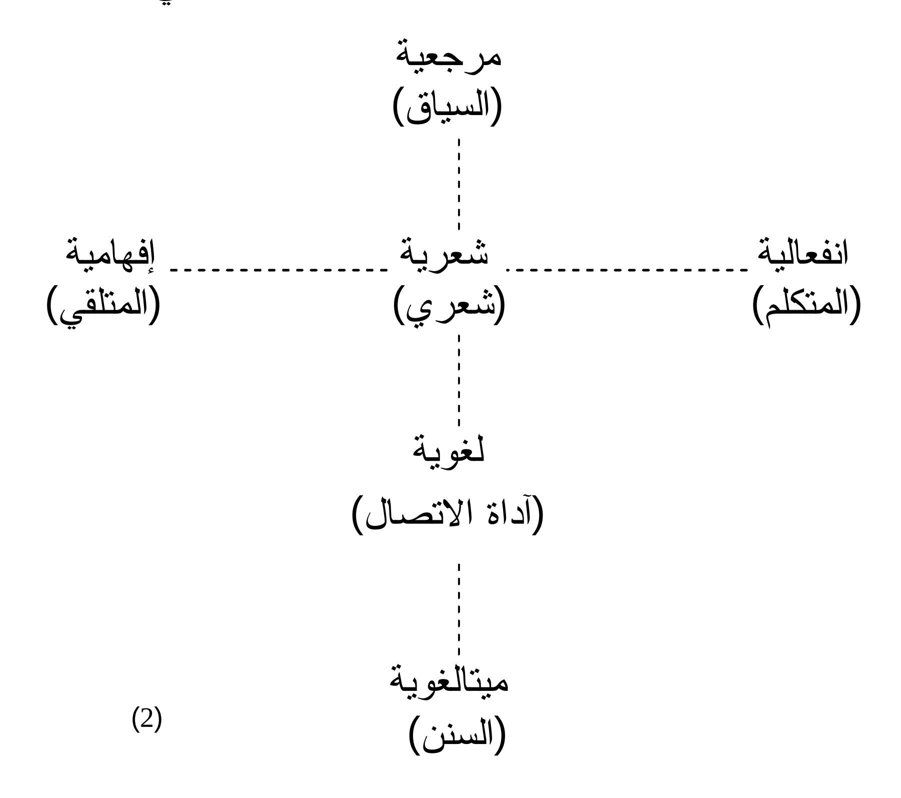

ومن هنا نرى أن سوسير قد حدد دورة تخاطبية بين طرفي الخطاب، انطلاقًا من التصور إلى الصورة السمعية المنتقلة من صورة كلامية بالنسبة للمتكلم إلى سمع بالنسبة للسامع.

(1) سعيد بنكراد – استراتيجيات التواصل- ص 08.
(2) عبد الجليل مرتاض - اللغة والتواصل- ص 38.

أما مارتينيه فيرى أن « إحدى وظائف اللغة، الاتصال وهي الوسيلة التي تسمح لمستعمليها الدخول في علاقات مع بعضهم بعض، وهي التي تضمن التفاهم المتبادل بينهم »[1]

يبدو من خلال كلام مارتينيه أن للغة عدة وظائف، لكن التواصل – ربما - يعتبر من بين أهم وظائفها نظرًا لإقامته علاقات متبادلة بين مستعملي اللغة.

وقد قسم جاكبسون وظائف اللغة إلى ستة خانات و« كل خانة تشير إلى وظيفة معينة فالانفعال مرتبط بالمتكلم (الوظيفة الانفعالية)، أما المتلقي فقد يكون عرضة للزجر والأمر والنهي والتوجيه (الوظيفة الإفهامية)، أما الشعري فمثواه الإرسالية (الوظيفية الشعرية). ويتحدد المرجع من خلال الإحالة على السياق (الوظيفة المرجعية) ويرتبط السنن باللغة الواصفة (الميتالغوية)، وقد لا تتجاوز الواقعة الإبلاغية، حدود الحفاظ على حالة من التواصل، خلال التأكيد على أداة الاتصال (الوظيفة اللغوية)، وتلكم هي الوظائف الست، التي يشير إليها جاكبسون من خلال صياغته نموذجه التواصلي:



[2]

(1) السابق ص 80.
(2) سعيد بنكراد – استراتيجيات التواصل- ص 09.

وهكذا يكون جاكبسون قد ألمَّ بجميع العناصر التي تقوم عليها العملية التواصلية، مع تحديد الوظائف المنوطة بكل عنصر.

« ويستعرض (لينش) الوظائف اللغوية من وجهة نظر وظيفية، عند عدد من الباحثين من خلال مستويات متنوعة، انطلاقا من أن النظرية الوظيفية تَعُدُّ اللغة شكلا اتصاليا، يعمل في أنظمة اجتماعية كبرى »[1]، هذا مما يوضح أن التواصل من بين أهم الوظائف التي تؤديها اللغة، إن لم يكن الوظيفة الأساسية لها. ويتأكد ذلك من خلال حصر (بوبر) وظائف استعمال اللغة « في أربع وظائف مرتبة من الأدنى إلى الأعلى وهي:

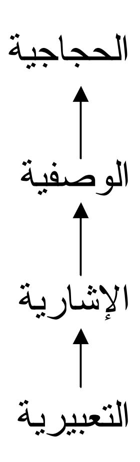
1- الوظيفة التعبيرية (لتعبير الشخص عن حالاته الداخلية)

2- الوظيفة الإشارية (لتبليغ الشخص المعلومات المتعلقة بحالاته الداخلية إلى الآخرين)

3- الوظيفة الوصفية (لوصف الأشياء في المحيط الخارجي)

4- الوظيفة الحجاجية (لتقسيم الحجج وتبريرها) »[2]

ونمثل هذه الوظيفة كما يلي:




نلاحظ حسب الشكل السابق بأن المتكلم ينطلق أوّلاً من التعبير عمَّا في نفسه، وتوضيح حالاته الداخلية (التعبيرية)، ومن ذلك فهو يبلغ شخصًا ما معلومات تتعلق بهذه

---

(1) عبد الهادي بن ظافر الشهري – استراتيجيات الخطاب- ص 14.

(2) نفسه ص 14.

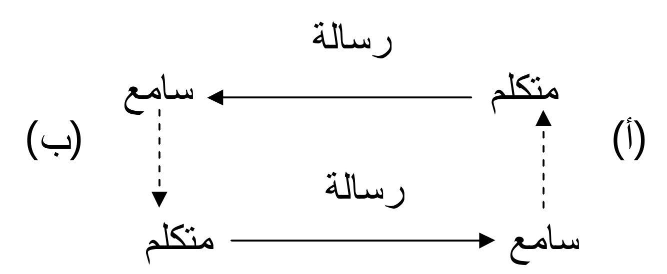
الحالة (الإشارية) على أن ذلك يرتبط بما في المحيط الخارجي فيذهب واصفًا إيّاه (الوصفية) في إطار خارجي به يقنع مستمعه (الحجاجية)، وهكذا تكون اللغة عند بوبر، قد أدت الوظائف المنوطة بها.

وهكذا فقد حدد بوبر، بأن أساس اللغة التواصل بين أفراد المجتمع وهذا عن طريق (متكلم/ سامع/ رسالة/ قناة).

كما يعرف (هنري سويت) اللغة بأنها « التعبير عن الفكر عن طريق الأصوات اللغوية »[1]

مما يستوجب وجود (متكلم/ سامع/ رسالة/ قناة)، ويتضح ذلك أكثر في تعريف (سابير) للغة بأنها « وسيلة لتوصيل الأفكار والإنفعالات والرغبات عن طريق نظام من الرموز التي يستخدمها الفرد باختياره »[2].

وهو تقريبا ما نجده في تعريف (يسبرسن)، إذ « تكمن روح اللغة في نوع من النشاط الإنساني، نشاط من جانب فرد يجدُّ في إفهام نفسه لشخص آخر، ونشاط من جانب هذا الشخص الآخر بغرض فهم ما كان يجري في ذهن الشخص الأول »[3] وهنا يؤكد يسبرسن عن تبادل كُلٍّ منهما الوظائف، الموضحة في الشكل التالي:




من خلال هذا الشكل يتضح لنا كيف يتحوّل المتكلم إلى سامع، والسامع إلى متكلم عن طريق تبادل المهام واتجاه الرسالة.

---

(1) عبد العزيز شرف – علم الإعلام اللغوي- ص 70.
(2) نفسه ص 70.
(3) نفسه ص 70

إن هذه التعريفات المختلفة للغة، تتفق جميعها على أن الوظيفة الأساسية لها هي الوظيفة التواصلية، ورغم ذلك فإنه من الصعب أن نعثر على تعريفات للتواصل تتفق في كل جوانبها مع رغبات الباحثين. « فمعجم اللسانيات الذي أشرف عليه ج.دبوا J.dubois يقترح علينا تعريفين:

1- التواصل La Communication، تبادل كلامي بين المتكلم الذي ينتج ملفوظًا أو قولاً موجهًا نحو متكلم آخر inter locuteur يرغب في السماع أو إجابة واضحة أو ضمنية explicite ou implicite، وذلك تبعًا لنموذج الملفوظ الذي أصدره المتكلم Le sujet parlant.

2- التواصل حدث، نبأ ينتقل من نقطة إلى أخرى ونقل هذا النبأ يكون بواسطة مرسلة استقبلت عددًا من الأشكال المكفوفة qu' a été codé »[1]

في التعريفين السابقين نجد أن (ج. دبوا) ومن معه من الباحثين قد ركزوا جميعهم على العناصر السالفة الذكر في العملية التواصلية.

في حين نجد مفهوم التواصل في « المعجم الذي أشرف عليه A.Moles (denoél) نجد فيه أن التواصل هو عملية جعل فرد – أو مجموعة- متموضعة في عنصر من نقطة (س) يشارك في التجارب التي ينشطها محيط آخر متموضع في عهد آخر في نقطة (ص) من مكان آخر، مستعملا عناصر المعرفة المشتركة بينهما »[2]

وهنا يبدو أن صاحب المعجم ركز على التواصل بوجهيه المنطوق والمكتوب، خاصة إن كانت هذه المشاركة بين عهدين، كما جاء في التعريف. كما يبدو تركيزه على الشفرة واضح جدًّا من خلال استعمال عناصر المعرفة المشتركة بين متبادلي الكلام.

(1) عبد الجليل مرتاض – اللغة والتواصل- ص 78.
(2) نفسه ص 79.

ويرى (جرولد كاتز) في حديثه عن التواصل اللغوي أنه « مسار يكون المعنى الذي يقرن به المتكلم الأصوات، هو نفس المعنى الذي يقرن به المستمع الأصوات نفسها، فقد يكون من الضروري أن نستخلص من ذلك أنَّ متكلمي لغة طبيعية معينة يتواصلون فيما بينهم في لغتهم لأن كلاً منهم يمتلك بصورة أساسية تنظيم القواعد نفسه، ويتم التواصل، لأن المتكلم يرسل مرسلة عبر استعمال نفس القواعد اللغوية التي يستعملها المستمع إليه لكي يلتقطها »[1]

يتضح من خلال كلام كاتز بأن التواصل لابد أن يتم عن طريق مواضعة يتعارف عليها طرفا التواصل (الملقي والمتلقي) وهو ما يسمى بـــ (الشفرة)، التي لولاها ما تمت العملية التواصلية، ومنه فإن التواصل يقوم على عناصر أساسية هي (متكلم/ سامع/ رسالة/ قناة/ شفرة) إضافة إلى السياق الذي تكون فيه الرسالة.

وخلاصة وظيفة التواصل ما يلاحظه (بينيت) إذ يرى « أنّ وظيفة التواصل تتمثل أساسًا في سعي المتكلم إلى إبلاغ المتلقي بأمر ما، أو إلى نسبة عمل ما إليه »[2]

وهكذا، فالإنسان هو أساس العملية التواصلية، إذ قد يكون متكلما أو سامعًا بينه وبين فـــرد آخر أو جماعة أو قد يكون تواصله عن طريق الكتاب أو الجريـــدة، وهو ما يسمى بالتواصل الثقافي أو كما سماه ابن وهب « البيان بالكتاب »، وهو في « مشاركة لهذه العمليات الاتصالية يقوم بعمليات اتصال ذاتية يناقش بينه وبين نفسه عددًا من الأفكار والموضوعات »[3].

وحريٌّ بنا هنا أن نتساءل عن أهمية الاتصال والتواصل بالنسبة للفرد والمجتمع إذ يمكننا أن نلخص هذه الفائدة في النقاط التالية:

---

(1) السابق ص 37.

(2) ج.ب براون- ج.بول – تحليل الخطاب- ص 02.

(3) محمد عبد الحميد – الاتصال في مجالات الإبداع الفني الجماهيري- ص 33.

1- يحدد التواصل دور الفرد داخل المجتمع، وبذلك يحس كل فرد بقيمته الاجتماعية فكل دور اجتماعي يفرض على صاحبه التواصل مع الآخرين.

2- يساعد الفرد على الاقتراب من غيره وإحساسه بالطمأنينة الناتجة عن التماسك الاجتماعي.

3- يفيد الفرد في اتخاذ قراراته من خلال معرفته بالقضايا والموضوعات اليومية.

4- يدعّم انتماء الفرد إلى المجتمع، كونه يكتسب سمات وخصائص المجتمع الذي يعيش فيه.

5- يوفر المعلومات الخاصة بالبيئة، مما ينعكس على دعم الاستقرار داخل المجتمع وخارجه.

6- يحقق الترابط بين الأفراد ويدعم التفاعل الاجتماعي.

7- يحقق الحفاظ على الهوية الثقافية للمجتمع. [1]

8- يُولّد الفهم عند الآخرين. فنحن- على رأي غرايس- « حين نتصل بالناس (...) نفلح في توليد فهم لديهم، يجعلهم يتعرفون على قصدنا في توليد ذلك الفهم »[2]

---

[1] ينظر محمد عبد الحميد – الاتصال في مجالات الابداع الفني الجماهيري- ص 20-21-22.
[2] جون سيرل – العقل واللغة والمجتمع- ص 212.

**توطـئة:**

يُعدُّ التواصل من أهم وظائف اللغة إذ « الاتصال هو العملية الاجتماعية التي تتم بين أعضاء الجماعة أو المجتمع لتبادل المعلومات والآراء والأفكار والمعاني لتحقيق أهداف معينة »[1] فالإنسان يكون بذلك قد أودع في اللغة عالمه الخاص بكل صدق، فاللغة عبارة عن قدرات ذهنية تمكّن الإنسان من التواصل والتعامل والتفاعل مع محيطه ومجتمعه، ولكن قبل أن يحدث ذلك – أي تواصل المرء مع الآخرين- هل يحدِّثُ الإنسان نفسه؟ أو بالأحرى هل يحدث التواصل بين الإنسان وذاته؟

[1] أحمد محمد معتوق –الحصيلة اللغوية- ص 29.

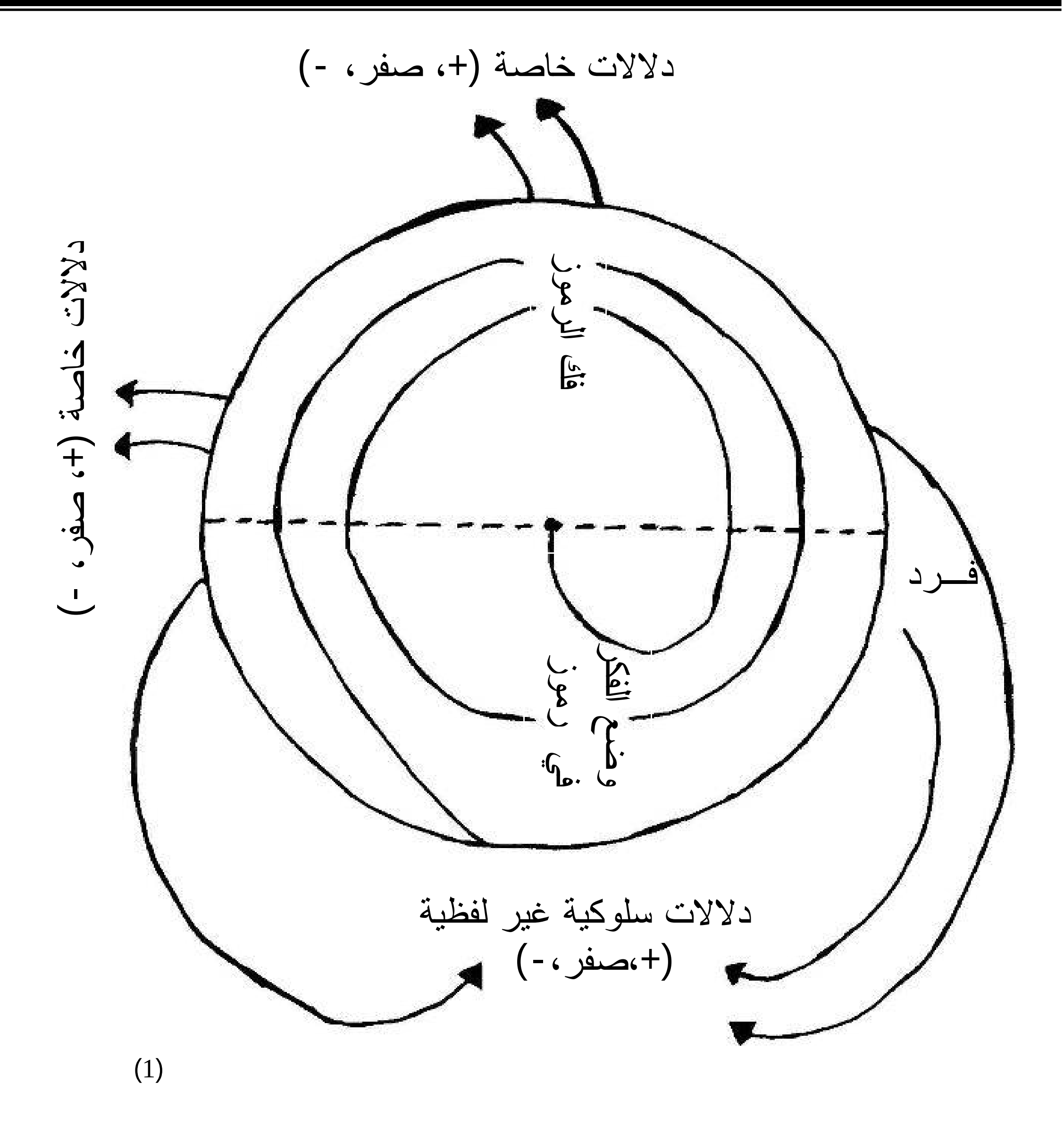
## I - مفهوم التواصل الذاتي وعناصره

### أ/ مفهومه:

من بين تعاريف اللغة: « أنها قدرة ذهنية مكتسبة يمثلها نسق من رموز اعتباطية منطوقة يتواصل بها أفراد المجتمع »[1]، فهي إذن قبل أن تكون منطوقة ويتواصل بها أفراد المجتمع، هي قدرة ذهنية، حيث يعتبر تعريف ابن جني من بين أدق تعريفات اللغة على الإطلاق، إذ « يشتمل (...) أربع قضايا جوهــرية هي: الأصوات والوظيفة والــطابع الاجتماعي للغة، والطابع النفسي »[2] وفي تركيزنا على الطابع الــنفسي نجد أن الإنسان لا يطلق أصواتًــا يعبِّــر بها عن أفكاره، إلاّ إذا أحدثها في نفسه أوّلاً، وبـــذلك قد تــواصل مع نفسه، قبل أن يتواصل مع الآخرين، وكما يقول كيسلــر:« إن التفكير ليس سوى الحركات اللاشعــورية الصوتية، و أنه نوع من الهمس غيــر المسموع الذي يدور بين المرء ونفسه »[3] فالإنسان في تفكيره، بل حتى في تواصله مع الآخرين، أو عندما يحدث نفسه، يكون قد أحدث اتصالاً ذاتيًّا، هو المتكلم فيه والسامع في آن واحد، ولفهم الاتصال الذاتي أكثر نستطيع الاستفادة من نموذج (بارلند) الذي يوضحه في الشكل التالي:

---

(1) عمر مهيل – إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة- ص 31.
(2) محمد بوعمامة – اللغة والفكر والمعنى- ص 237.
(3) أحمد محمد معتوق – الحصيلة اللغوية- ص 31.




(1)

ويتضح في هذا الشكل النظام التواصل الذي يبدأ من فك الرموز عن طريق الاستجابة للدلالات المادية والسيكولوجية عند الآخرين، ليحدث بذلك اتصالاً ذاتيا بين الفرد وذاته عن طريق هذه الاستجابة، وقد يكون ذلك عن طريق إدراك الذات، « ونشير فقط إلى أنّ إدراك الذات يتم على أساس تصوُّر وجود الغير »[2]، وهذا الإدراك يولّد في نفس المرء صراعًا بين « القيم الاجتماعية والأخلاقية والثقافية والفلسفية (...) من جهة،

---

[1] عبد العزيز شرف – علم الإعلام اللغوي- ص 16.
[2] عمر بلخير – تحليل الخطاب المسرحي- ص 59.

وبين الرغبات والميول والأحاسيس والغرائز (...) من جهة أخرى، إن الحديث في هذا الإطار يتمحور حول الصراع بين (الأنا الأعلى): الذي يشكل الطرف الأوّل من الحوار الداخلي و(الهو) الذي يشكل الطرف الثاني –على حد التعبير الفرويدي- وكل هذا النشاط يتحول – حسب باختين- إلى جدال بين متكلم خفي ومخاطب خفي أيضًا »[1]، وهذا الجدال الذي يحدث داخل النفس، ما هو إلاّ حوارٌ داخليّ (مونولوج) أو حديثٌ نفسي، يتم من خلال الحالات الـــنفسية التي تنتاب الإنسان، كالقلق والـــتشاؤم والتفاؤل، وغير ذلك من هذه الحالات فالمونولـــوج إذن هو « حوار تستعمل فيه العديد من تقنيات الـــحوار العادي (...) فهو - كما يقول باختين– يصاغ على شكل حوار، وما أدلَّ على ذلك من القلق الذي يصيب الشخص حينما يهمُّ باتخاذ قرار خطير في حياته، إذ تسيطر عليه الحيرة »[2]

فالاتصال الذاتي من خلال ما سبق « هو عملية تتفاعل وتأخذ مكانها داخل المرء، فهي إذن عملية شخصية بحتة تتم فيها مخاطبة الإنسان لذاته »[3] وهذا الاتصال لا يكون مجرد اتصال عادي إنما يتأتى عن طريق الشعور والوعي والفكر والوجدان وعدد من العمليات النفسية الداخلية[4] التي تجعل المرء يحاور نفسه ويخاطبها.

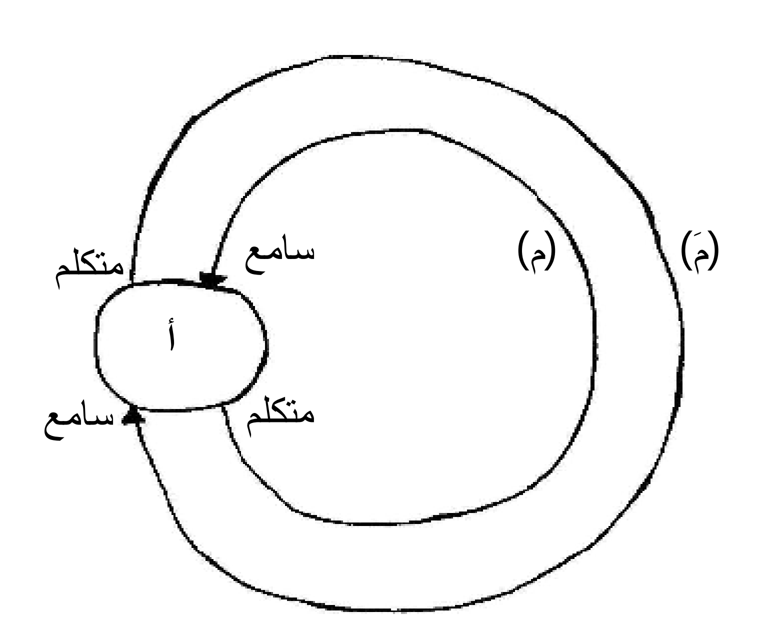
ويتحسس إميل بنفينيست هذه العملية بقوله: « يتشكل الإنسان من حيث هو ذات في اللغة وباللغة، إذ هي وحدها تؤسس في حقيقة الأمر مفهوم (الأنا) ضمن واقعها الذي هو واقع الوجود »[5] فالإنسان إذن يحدد ذاته في اللغة عن طريق اللغة ذاتها، ومن هنا يتأسس مفهوم (الأنا) ضمن واقع الوجود عند بنفينيست، ويضيف: « إن الذاتية التي نبحث فيها هي قدرة المتكلم على أن يطرح نفسه بوصفه (ذاتًا)، وهي تعرف لا بوساطة الشعور

---

(1) السابق ص 59.
(2) نفسه ص 59.
(3) راشد علي عيسى – مهارات الاتصال- ص 42.
(4) ينظر عبد العزيز شرف – علم الإعلام اللغوي- ص 11.
(5) عمر مهيبل – إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة- ص 31.

الذي يعيشه كل واحد منا بأنه هو نفسه، بل تعرف باعتبارها الوحدة النفسية التي تتعالى على كلية التجارب المعيشة، التي تجمعها هذه الوحدة النفسية وتضمن دواعي الوعي »[1]، وهنا يطرح بنفينيست إشكالية جديدة، وهي أن قدرة المتكلم تظهر أولاً في ذاتيته، فالمتكلم عند بنفينيست ينطلق من الحوار الداخلي وهو يتحسس ذاته قبل أن يصدر ما يفكّر فيه في شكل أصوات إلى ساحة الشعور.

وبذلك يمكننا أن نقول بأن المتكلم (أ)، يحاور ذاته عبر عملية الحوار الداخلي التي تسلك مسارين، (م) الذي يكون بداية الحوار، و(مَ) الذي يعبِّر عن الردّ أو الاستجابة سواءً أكانت إيجابية أم سلبية، ويكون ذلك على النحو التالي:




**رسم يوضح عملية الحوار الداخلي**

(1) السابق ص 31.

ب/ عناصره:

لـــيس الحوار الداخلـــي ببعيد عن الخارجي، فإذا كان الثانـــي يستـــوجب طرفين (مخاطِب/ مخاطَب) مختلفين، فإن الأول يستوجب كذلك الطرفين نفسهما، لكن لا يكونا خارجيين، فالإنسان يشكل في ذاته داخليا الطرفين معًا « ذلك أن الإنسان يفعل كلامًا خفيًّا في داخل صدره، ويقطعه بالنفس فيكون كلامًا بالحقيقة وإن كان غير مسموع ثم إن أحدنا قد يحدث نفسه بنسيج ثوب أو بناء دار »[1]، وهكذا نكون قد أقمنا التواصل بجميع عناصره في نفوسنا، وهذا التواصل هو عبارة عن استجابة للواقع الذي حددنا له موقعًا في أنفسنا فحينما « يلجأ الإنسان إلى إجراء حوار داخل نفسه، يكون قد أقام جسور التواصل في ذاته، باعتبار ذلك صورة من التواصل على أرض الواقع »[2]، وفي هذا النوع من التواصل نجد أن الإنسان يقيم التواصل بين متكلم وسامع في نفسه إذ يكون المتكلم طرفًا فيه من جانب، وأطرافه كلها من جانب آخر. فنحن طرف من حيث أن هذا الحوار يكون بيننا وبين غيرنا على أساس أننا نخاطب الآخر، وإن كان في داخلنا، ونعتبر أيضا أطرافه كلها لأن هذا الحوار يقام في داخلنا.

ومنه فالإنسان يقيم الحوار في نفسه داخليًا، قبل أن يصدر منه في أصوات مسموعة، حيث أن « الصوت المسموع طريق إلى إثبات الكلام القائم في النفس »[3]

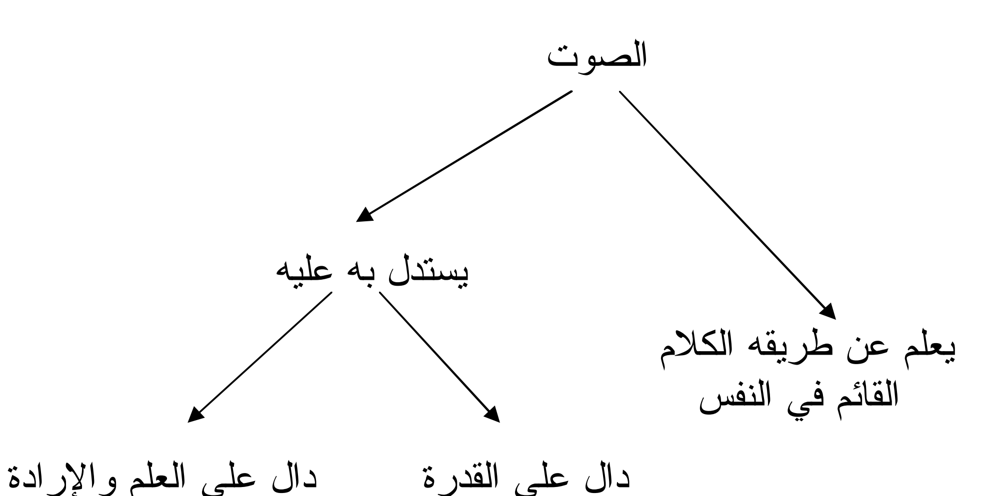
فـــالإنسان لا يتكـــلم في قضية مثبتًا أو نافيًا أو غير ذلك، حتَّى يقيمها في نفسه أوّلاً وينـــاقشها، ويختار اللفظ المعبر عنهـــا، وبذلك فـــإن كل صوت هو نتيجة لكـــلام في النفس.

---

[1] ابن سنان الخفاجي – سر الفصاحة- ص 41.
[2] سمير شريف استيتية – اللسانيات التواصلية والمجتمع- ص 09.
[3] ابن سنان الخفاجي - سر الفصاحة- ص 41.

حيث يجد كل عاقـــل « في نفسه عند الكلام أمرًا يضايقه، ويدبر في نفسه ما يريد أن يتكلم به، حتى يخطب الخطبة، وينشد القصيدة، من غير أن يحرك من ذلك جارحة بحال من الأحوال، وذلك يبين أن الكلام معنًى قائم في النفس »[1]، فالواحد منا لا ينطق ببنت شفةٍ إلاّ بعد أخذٍ وردٍّ في نفسه، وليس أدلُّ على ذلك من أن الرّجل لا ينطق أمام غيره إلاّ إذا فكّر ما إذا كان كلامه يليق بالمكان بالمخاطب ومقامه أم لا، وهذا الكلام « ليس يخلو من أن يكون طريقًا إليه، يُعلم عنده أو يستدل به عليه، فإن كان الأول وجب أن يعلم كل من سمع الكلام الذي هو الصوت الواقع على بعض الوجوه شيئًا آخر عنده، ومعلوم خلاف ذلك، وإن كان يستدل به عليه فالكلام المسموع إنما يدل على ما لولاه لما حدث –وهو القدره- أو ما لولاه لم يقع على بعض الوجوه، وهو العلم والإرادة »[2] فـــالصوت المسموع عند ابن سنان ما هو إلاّ صدًى لما يقع في النفس من أفكار، ومن خلاله يُعلم، أو يستدل به عليه، فإن استدل به فإنه يدل على قدرة المتكلم أو يدل على العلم والإرادة.

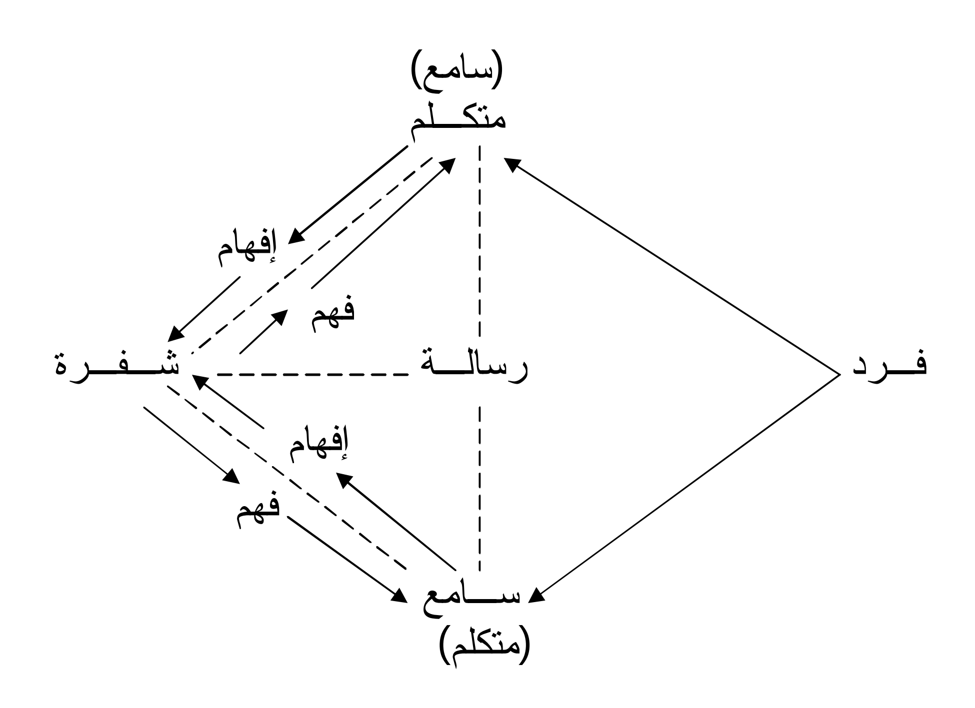
ويمكن أن نختصر هذا القول في المخطط التالي:




فإذا كان الإنسان يقيم التواصل مع نفسه فهو حينئذٍ (متكلم/ وسامع) وذلك على اعتبار وجود سامع افتراضي، يكون هو ذاته المتكلم أو في نفس المتكلم وهناك موضوع يناقشه

(1) ابن سنان الخفاجي –سر الفصاحة- ص 41.
(2) نفسه ص 41.

يمثل الرسالة، في حين أن الشفرة هنا تكون واضحة على أساس أن المتكلم هو نفسه السامع، ومنه فالتواصل الذاتي يقوم على عناصر أربعة هي: (متكلم/ سامع/ رسالة/ شفرة).




ومن خلال ما سبق يتضح أن الإنسان يقوم في نفسه بعدة عمليات نفسية تتمثل – في كثير من الأحيان- في التفكُّر والتأمُّل أو ما يسميه ابن وهب (الاعتبار)* وهو (النصبة) عند الجاحظ أو عن طريق مناقشة الإنسان مع ذاته كل ما هو في محيطه الخارجي ليتحول هذا (الاعتبار) إلى معرفة وعلم وهو ما سمّاه ابن وهب أيضًا (لاعتقاد)** وقد يكون في الإنصات وحسن الإصغاء، فنحن « في أغلب الأحيان ننصت إلى محدثنا، ونحن نفكّر في الرّدِّ عليه أو ما يمكن أن نضيفه إلى ما قاله »[1]

* ينظر ابن وهب – البرهان- ص 65.
** ينظر نفسه ص 86.
[1] جان كلود مارتان –ما التواصل- تر: س ب، ص49.

## II - وجــوهـــه

### أ- الاعتبار*

يعتبر الاعتبار من أهم مستويات الـــتواصل الذاتي، وهو الذي تبين فيه الأشياء « لمن تبين، وتعبّر بمعانيها لمن اعتبر »[1] وذلك لمن طلب الاعتبار مما يرى من خلق الله جلّ وعـــلا، فــ « الأشياء تبيَّـــن للناظر المتوسم، والعاقل المتبيِّـــن بذواتها، وبعجيب تركيب الله فيها وآثـــار صفته في ظاهرها، كما قال تعالـــى: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةً لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾** »[2]

والاعتبار عند ابن وهب إمّا ظاهر، وإما باطن، إذ يقول: « إن الظاهر من ذلك ما أدرك بالحس كتبيننا حرارة النار وبرودة الثلج على الملاقاة بهما، أو ما أدرك بنظرة العقل التي تتساوي العقول فيها مثل تبيننا أن الزوج خلاف الفرد، وأن الكل أكثر من الجزء، والباطن ما غاب عن الحسِّي، واختلفت العقول في إثباته فالظاهر مستغنٍ بظهوره عن الاستدلال عليه والاحتجاج له، لأنه لا خلاف فيه، والباطن هو المحتاج إلى أن يستدل عليه بضروب الاستدلال، ويعتبر بوجوه المقاييس والأشكال »[3]

فالظاهـــر - عند ابن وهب– قسمان، إمّا مدرك بالحـــس كالـــفرق بين السماء الصافيـــة والـــغائمة، وهذا يـــدرك بحاسة الـــنظر، وهناك ما يـــدرك بحـــواس أخرى أو ما أدرك بالعقل - فيما تتساوى فيه العقول- من الأشيـــاء البسيطة الـــظاهرة للجميع كالزوج خلاف الـــفرد، وقـــس على ذلك، وهذا ما لا يحتاج إلى دليل وحجة، أمّا الباطن

* وهو النصبة عند الجاحظ.
(1) ابن وهب – البرهان- ص 65.
** العنكبوت 35.
(2) عبد العزيز شرف – علم الإعلام اللغوي- ص 11.
(3) البرهان ص 65.

– وهو الأهم عند ابن وهب- لأنه الذي تختلف فيه العقول، ويحتـــاج إلى دليل وبرهان، وهـــذه الحال ليست معبِّرة لأيٍّ كان من الـــبشر، « إنما تعبِّر (...) لمن اعتبر بها وتبين لمن طلب البيان منها، ولذلك جعل الله عز وجل الآية فيها لمن توسَّم وتفكَّر وعقل وتذكَّر فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾* و﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾** و﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾*** و﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾**** فـــهذا وجه بيان الأشياء بذواتهـــا لمن اعتبـــر بها وطلب البيان منها، فإذا حصل هذا للمتفكر صار عالمًا بمعاني الأشياء »[1]، ولا يتأتى ذلك إلاّ لعاقـــل لبيب مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾﴾[2]

والاعتبار عند ابن وهب هو ما يسميه الجاحظ (النَّصبة) وهي « الحال الناطقة بغير اللفظ، والمشيرة بغير اليد، وذلك ظاهر في خلق السماوات والأرض، وفي كل صامت وناطق، وجامد ونامٍ ومقيم وظاعن، وزائد وناقص، فالدلالة التي في الموات الجامد، كالدلالة التي في الحيوان الناطق »[3]، وهنا نجد اتفاق الرجلين في معنى (الاعتبار والنصبة) رغم اختلافهما في التسمية، فكل صامت ناطق بدلالته، فإذا كان الحيوان الناطق دليلاً على عظمة الله، فإن الجامد كذلك دليل على عظمته وقدرته عز وجل، « لذلك قال الأوّل: سل الأرض، فقـــل: من شق أنهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك؟ فإن لم تجبك حـــوارًا أجابتك اعتبارًا »[4] فالأرض الجامدة الصامتة عندما يقف أمامها العاقـــل معتبرًا متدبرًا في خلق الله، تنطق بخالقها وبمن أجرى الـــماء فوقها وتحتها وأخرج من باطنهـــا

* الحجر 75
** الرعد 03
*** الرعد 04
**** النمل 13
(1) عبد العزيز شرف - علم الإعلام اللغوي- ص 12.
(2) الرعد 19
(3) الجاحظ – البيان والتبيين- ج1، ص 81.
(4) نفسه، ج1، ص 81.

ثمرًا تأكل الطير منه، ويتفق الإمام أبو الطاهر إسماعيل التجيني، - وهو يشرح كتاب ظاءات القرآن لأبي العباس المقرئ- مع ما جاء به الجاحظ وابن وهب، إذ يقول: « فالدلالة بالنصبة القائمة في خلق الأرضين والسموات وسائر الجمادات والحيوانات، كالدلالة المسموعة من العقلاء والناطقين والفصحاء المتكلمين بأبين البيان، بل النصبة أصدق إعلامًا وأرقُّ إفهامًا وأنصح وعظًا وأفصح لفظًا »[1]، فالنصبة/ الاعتبار في دلالتها قد تكون أصدق وأفصح وأوضح مما يقوله ناطق عاقل واعظ فصيح، فمن خلالها يأخذ الإنسان العبرة، ويقيم عدة تساؤلات في نفسه يخرج منها بنتيجة بيِّنة وحقيقة ثابتة، ويكون بذلك قد أظهر هذا الأمر وهذه الحقيقة التي وصل إليها عن قناعة وتدبُّر، وطلب للاعتبار، وهذا ما نجده في قوله تعالى، في تحديده أي المخلوقات الساكنة قد خلقت آية للعاقلين المتدبرين من البشر ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[2] فهذه المخلوقات التي ذكرها تعالى كلها دالة على قدرته وناطقة من جهة الدلالة بغير لفظ ولا إشارة، وشاهدة لخالقها بالربوبية، لذلك قال بعض الحكماء: « أشهد أن السماوات والأرض، آيات دالات وشواهد قائمات كُلٌّ يؤدي عنك الحجة، ويشهد لك بالربوبية »[3]

ويؤكد ذلك قول علي بن الحسين بن علي، حينما يقول، « لو كان الناس يعرفون جملة الحال في فضل الاستبانة، وجملة الحال في صواب التبيين، لأعربوا عن كل ما يختلج في صدورهم، ولوجدوا من بَرْدِ اليقين ما يغنيهم عن المنازعة إلى كل حال سوى حالهم »[4]

---

(1) أبو العباس المقري –كتاب ظاءات القرآن نقلا عن: بلقاسم حمام –آليات التواصل في الخطاب القرآني ص 61.
(2) البقرة 164.
(3) الجاحظ - البيان والتبيين- ج81/1
(4) نفسه ج84/1

وهذا مما يدل على أن الحال مبنية لذاتها دون نطق أو إشارة، إنما هي ناطقة بدلالتها.

وقال الشاعر يستنطق ما لا ينطق:

يا ربع بشرة بالجناب تكلَّم ù ù وَأَبِنْ لنا خبرًا ولا تستعجم

وقال آخر:

فـــأجهشت للتوبـــاد حيـــن رأيتـــه ù ù وكبَّـــر للرحمـــن حين رآنـــي

فـــقلت له: أيـــن الـــذين عهدتـــهم ù ù حـــواليك في عيش وخير زمانِ

فقال: مضوا واستودعونـــي ديارهم ù ù ومن ذا الذي يبقى على الحدثان؟![1]

فالشاعر قد سأل جامدًا لا يجيب، وأجاب عنه، وهو هنا إنما أجاب بحاله الظاهرة والمظهرة لبيانه، وقد اعتادت العرب ذلك في استنطاق الطلل حين يسألونه عن الأحبة الراحلين أو الأيام الخوالي.

ويذهب المحدثون إلى ما ذهب إليه صاحب البرهان ومنهم (بروكز) و(ويزمان) حيث ذهبا إلى « أن الكائن الحي يتأثر بمنبهات داخلية سيكولوجية، وفزيولوجية ومنبهات خارجية موجودة في محيطه، يتلقاها الفرد في شكل نبضات عصبية تنتقل إلى العقل الذي ينتقي منها، ويفكِّر فيها، ويتخذ قراره وفقًا لعملية تمييز تليها عملية إعادة تجميع للتنبيهات التي تمَّ اختيارها في مرحلة التمييز، ثم تركيب تلك المنبهات في شكل خاص له معنى عند الفرد القائم بالاتصال »[2]

وهكذا فإن الاعتبار يكون عن طريق تأثر الفرد بمنبهات داخلية نفسية، وأخرى خارجية من محيطه، ليصل بها إلى مرحلة التفكير والتفكُّر والتدبُّر، ولا يصل إلى المعاني

---

[1] ابن وهب – البرهان- ص 57.

[2] عبد العزيز شرف - علم الإعلام اللغوي- ص 13.

إلاّ بعد عدة عمليات سريعة كالتمييز، وتجميع تلك المنبهات وترتيبها في شكل يوصله إلى المعنى.

ثم يذهب ابن وهب إلى أن هذه العملية تتم عبر طرق هي:

1/ القياس: وهو نتيجة لمقدمة أو مقدمات، وعند ابن وهب « ليس يجب القياس إلا عن قول يتقدم، فيكون القياس نتيجة كقولنا: إذا كان الحي حسَّاسًا متحركًا، فالإنسان حي »(1) وحجته في ذلك قوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢﴾(2)

وكأني بابن وهب هنا يوظف المنطق الأرسطي، بوصوله إلى نتائج عن طريق مقدمات:

| | |
|---|---|
| - كل حيٍّ حسّاس متحرك | - مقدمة كبرى |
| - الإنسان حساس متحرك | - مقدمة صغرى |
| - الإنسان حي | - نتيجة |

ويستلزم القياس الوصول إلى أشياء قطعية تكون نتيجة لتلك المقدمات، كما هو ممثل في القضية السابقة، ونتائج القياس ثلاث هي:

أ- البرهان: وهو الصادر عن مسلمة لا خلاف فيها.

ب- الإقناع: وهو الصادر عن قول مشهور فيه اختلاف، يحتاج إلى إقناع.

ج- الباطل: وهو الصادر عن قول كاذب.(3)

وما يدل على الأشياء أربعة حسب ابن وهب وهي:

(1) ابن وهب – البرهان- ص 68.
(2) الحشر 02.
(3) ينظر بلقاسم حمام – آليات التواصل في الخطاب القرآني- ص 82.

أ- المشاكلة: وهي التشبيه، والتمثيل، إذ يقول ابن وهب: « وهما، (يقصد التشبيه والتمثيل) يقعان بين الأشياء في بعض معانيها، ولأنه ليس يجوز أن يشبه شـــيءٌ شيئًا في جميع صفاته، فيكون غيره »[1]، فعندما نقول (زيد أسد)، فزيد هنا يشبه الأسد في بعض الأشياء، ولا يطابقه، فلو طابقه لكانا شيئًا واحدًا.

ب- المضادة: إذ الضدُّ يعرف بالضِّدِّ – كما تقول العرب- « فإننا إذا عرفنا الحياة، وعلمنا أنها بالحس والحركة، عرفنـــا ضدّها الذي هو الموت وأنه بعد الحس والحركة »[2] بحيث أننا قد نكون نعرف الشيء، ولا نعلم صفاته، إلاّ إذا تحققنا من صفات نقيضه، وفي هذه الحال، لا نحتاج إلى من يعرفنا بها وإنما نقيضها دَلَّ عليها.

ج- العرض: ويقصد به الهيئة، أي هيئة الشيء في شكله، وطوله وارتفاعه وغير ذلك مما يحدد ملامحه ويوصف به[3]، بمعنى إعطاء الأوصاف جميعها للشيء المراد توضيحه أو المتكلَّم عنه.

د- الفعل: كدلالة الشيء على فعله، فباب الخشب يدل على وجود فعل النجارة والزرع دال على وجود الزراعة، وغير ذلك من الأشياء الدالة على أفعالها.

وكما تقول العرب (الأثر يدل على المسير).

2/ الخبر: وهو الوسيلة الثانية التي يحصل بها العلم، فإذا كانت أوجه النشاط في التواصل الـــذاتي تتفاعل متأثرة بوجهة نظر الـــقائم بالاتصال في الحياة، فهي تتوسل بالخبـــر كما تتوسل بالقياس[4]، وحجة ابن وهب في ذلك قوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٧﴾[5]

---

(1) ابن وهب – البرهان- ص 67.
(2) نفسه ص 71 .
(3) ينظر بالقاسم حمام – آليات التواصل في الخطاب القرآني- 82.
(4) ينظر عبد العزيز شرف – علم الإعلام اللغوي- ص 15.
(5) الأنبياء 07.

وفي الخبر يعتمد الإنسان على صحة ما ينقل من كلام العلماء والفقهاء وغيرهم، ممن يوثق بهم، وذلك مما لا سبيل للعقل فيه.

والخبر قسمان، يقين وتصديق:

أ- اليقين: وهو الذي نتحقق من صحته في ذاته، وصحة نسبته إلى صاحبه وهو « سكون النفس، وثلج الصدر بما علم (...) واليقين ما يزيل الشكّ دون غيره من أضداد العلوم »[1]. وهو ثلاثة أقسام:

- الخبر المتواتر، الذي تنقله جماعات متباينة، جماعة عن جماعة فلا يتواطؤوا فيه، فالله جلَّ ذكره ألزمنا بالإيمان بحجج الأنبياء والرسل، ومعجزاتهم، رغم أننا لم نشاهدهم أو نعايشهم وذلك لتواتر أخبارهم.

- خبر الأنبياء والرسل ومن كان في زمرة الأئمة.

- الأخبار المتواترة عن الخاصة كالعلماء مثلا.[2]

واليقين عمومًا هو ما تعترف العقول بصحته والإقرار به.

ب- التصديق: وهو الخبر المعلوم من جهة الآحاد، ولم تتواتره الألسن، وهو ما تقتنع به النفوس.

3/ الظن: «وقد يستنبط باطن الأشياء بوجه ثالث، وهو الظن والتخمين وذلك فيما لا يوصل إليه بالقياس ولا يتأتى فيه خبر»[3] والظن حق وباطل: فالحق ما وصلنا به إلى نتيجة بعد طول تخمين وتفكير ورويَّة وإن لم نصل به إلى نتيجة فهو باطل والظنَّ هنا

---

(1) أبو هلال العسكري – الفروق في اللغة- ص 73.
(2) ينظر عبد العزيز شرف – علم الإعلام اللغوي- ص 15.
(3) نفسه ص 15.

ليس مجرد حديث يدور في نفس الإنسان ليصل به إلى حكم غير مؤسس، و إنما هو سبيل للقطع والجزم والتثبيت، وفي ذلك يقول ابن وهب: « فإذا أردت أن يصدق ظنُّك فيما تطلبه بالظنِّ، مما لا تصل إلى معرفته بقياس أو خبر، فاقسم الشيء الذي يقع فيه ظنُّك إلى سائر أقسامه في العقل، وأعطِ كل قسم حقه في التأمل، فإذا اتجه لك أن الحق في بعض ذلك على أكبر الظن (...) جزمت عليه، وأوقعت الوهم على صحته »[1]

والظن هنا ما هو إلاّ حوارًا داخليًا بقيمة المرء في نفسه وبعد أخذ وردٍّ يصل به إلى اليقين، كما أن تظن بإنسان عداوته لك، ولم يتبين لك ذلك في ملامح وجهه أو كلامه أو تصرفه، فتحصر الأشياء التي توقع العداوة بين المتعادين، كالشركة والمنازعة والميراث ...إلخ ثم تنظر إن اجتمعت بينكما، أو أكثرها أوقعت الوهم على أنه لك عدو، وإن وجدته ينفرد ببعضها فقط، ذهبت في النظر إلى ما يوجب اللطف والمودة بينكما من معاملة سابقة، وإحسان متقدم ... ثم وازنت بين الخلال الموجبة للعداوة، والخلال الموجبة للصداقة، وتحيزت إلى الأقوى من الصنفين، فإن لم تجد بينكما ما يوجب العداوة، أزلت عن قلبك الظن.[2]

والظن هنا هو بداية التخمين للوصول إلى اليقين، فإن لم نصل إليه بقي ظنًّا. ويؤكد صاحب البرهان، إمكانية الوصول إلى اليقين من خلال الظن قائلاً: « وكل هذه الأحوال (...) إنما تقع أوائلها بالظن فإن شهد لها ما يخرجها إلى اليقين صارت يقينًا وإلاّ كانت تهمة وظنّة وإثما »[3]

---

[1] ابن وهب – البرهان- ص 81-82.
[2] ينظر نفسه 82.
[3] نفسه ص 83.

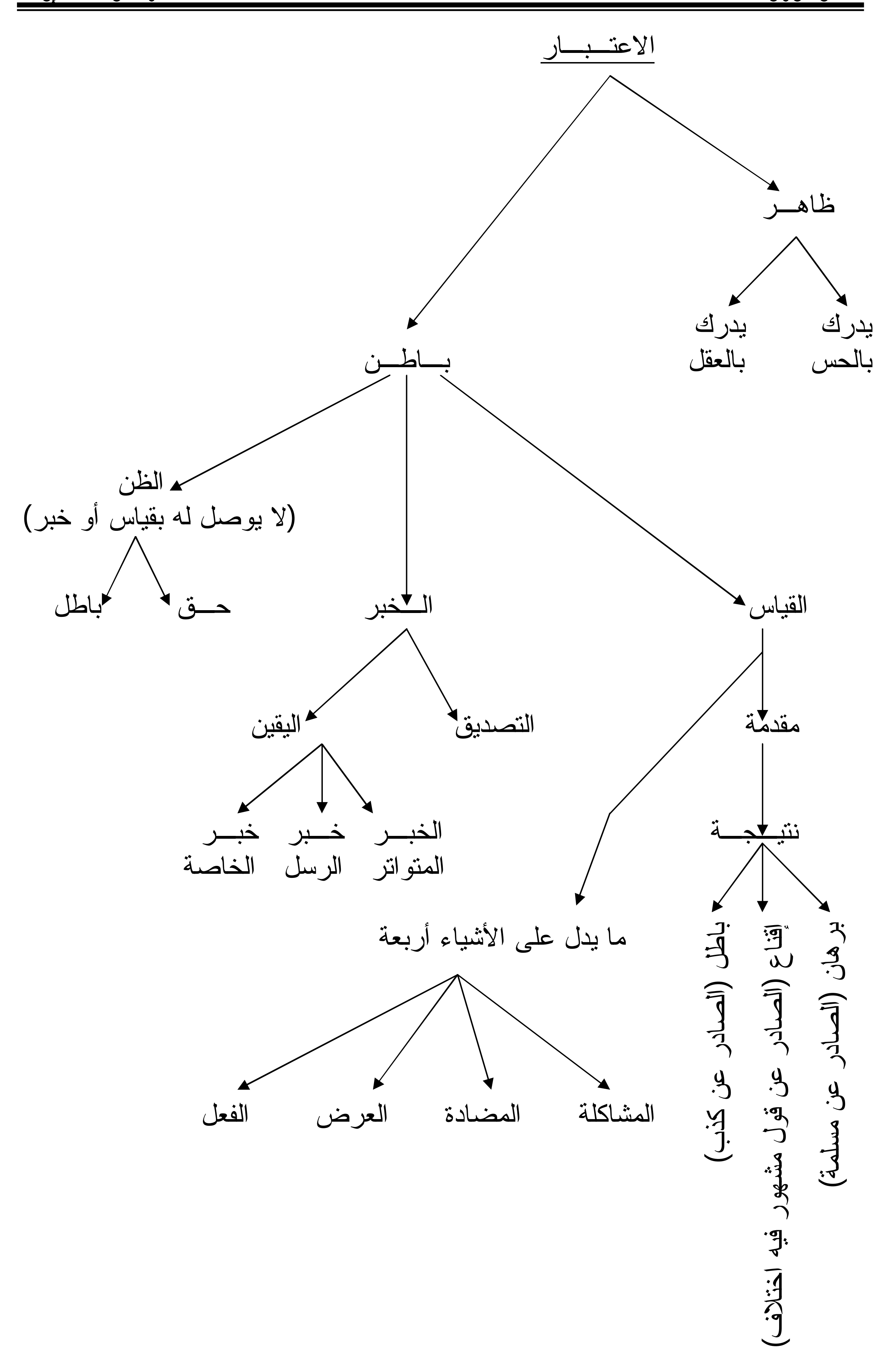
وهكذا فإن ابـــن وهب قد حدد ما تبين عنه الأشياء بذواتهـــا. والوصول إلى باطنها في الـــتواصل الذاتي، الذي يقــوم على القياس الذي نصل إلى نتائجه عن طريق الـــمقدمات، أو خبر حسب رتبته، ســـواءً أكان يقينـــا، حكم العقل بصحته وأقـــرَّ به بعد تدبر وتفكُّـــر، أم تصديقًا، اقتنعت به النفس وصدقت بعد ارتياح وطمأنينة، فإن لم يكن هذا ولا ذاك لجأنا إلى الظن الذي هو سبيل اليقين.

وهذه الوسائل الثلاث (اليقين/ التصديق/ الظن) لا يمكن أن تتجاوز إحداهما الأخرى إلاّ إذا فقدت، ويؤكد ذلك ابن وهب بقوله: « وطلبوا في الأشياء اليقين، فإن وجدوه تركوا غيره، فإذا عدموه طلبوا الإقناع الذي به التصديق، فإن وجدوه أخذوا به، وإن لم يجدوه أعملوا الظن »[1] حتى يصل الإنسان إلى ما يحتاج إليه.

وفيما يلي مخطط يختصر الاعتبار عند ابن وهب:

---

[1] ابن وهب – البرهان- ص 84.


الاعتـــبـــار
ظاهـــر
يدرك بالحس
يدرك بالعقل
بـــاطـــن
الظن (لا يوصل له بقياس أو خبر)
حـــق
باطل
الـــخبر
التصديق
اليقين
الخبـــر المتواتر
خـــبر الرسل
خبـــر الخاصة
القياس
مقدمة
نتيـجـــة
برهان (الصادر عن مسلمة)
إقناع (الصادر عن قول مشهور فيه اختلاف)
باطل (الصادر عن كذب)
ما يدل على الأشياء أربعة
المشاكلة
المضادة
العرض
الفعل

من خلال ما سبق، يتبين لنا أن ابن وهب قد ركز في عنصر الاعتبار، على الباطن، الذي يتم فيه التواصل الذاتي من خلال العمليات النفسية، التي تتم في ذات الفرد، فيكون متكلمًا وسامعًا، مصدقًا ورافضًا، مقنِعًا ومقنَعًا ...إلخ في آن معًا، وعلى سبيل تصور مخاطبه الآخر، في حين نجد أن الجاحظ، فيما سمَّاه بالنصبة، لم يهمل الظاهر كذلك الذي يدرك بالحسّ أو العقل، وإنما انطلق منه للباطن، وهو يورد قول أحد الخطباء حين وقوفه على سرير الاسكندر، وهو ميت إذ قال: « الإسكندر كان أمس أنطق منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس »[1]

---

[1] الجاحظ - البيان والتبين- 81/1.

**ب - الاعتقاد:**

رأينا أن الاعتبار هو بيان الأشياء بذواتها، لمن اعتبر بها، « فإذا حصل هذا البيان للمتفكّر، صار عالمًا بمعاني الأشياء، وكان ما يعتقد من ذلك بيانًا ثانيا غير ذلك البيان، وخصَّ باسم الاعتقاد »[1]

فالاعتقاد إذن مرتبط ارتباطًا وثيقًا بعنصر الاعتبار، إذ « يشكل مع بيان الاعتبار ما يحدث في عقل المرسل والمستقبل »[2]

ومنه فالتواصل الذاتي يضم وجهين من أوجه البيان عند ابن وهب، فإذا بيَّنت الأشياء بذواتها للعقل الإنساني، فقد صارت علمًا بالنسبة إليه، لذلك قسم ابن وهب هذا البيان إلى ثلاثة أضرب، فمنه « حق، لا شبهة فيه، ومنه علم مشتبه يحتاج إلى تقوية بالاحتجاج فيه، ومنه باطل لا شك فيه »[3]

ويوافق المحدثون ما جاء به صاحب البرهان، حيث يرون بأن التواصل الذاتي يتضمن الأنماط التي تتشكل في ذات الفرد ويطورها في عملية الإدراك، أي عن طريق الملاحظة والتقويم، وإضفاء معنى على الأفكار والأشياء الخارجية[4]. وهكذا فإن الإنسان عبارة عن نظام اتصالي، يفك عدّة رموز في مجال الإدراك، وذلك بتحويل الأشياء التي يميزها في عالمه الخارجي إلى دلالات تظهر لغيره.

وتجمل أضرب بيان والاعتقاد في:

أ- حق لا شبهة فيه/ يقين: وطريقــته العقــل، وذلك عن طريق مقدمات قطعية، مثل: الــكل أكبر من الجزء والكــل ضعف النصف، أو مقدمـــات ظاهرة على وجه الإنسان،

(1) عبد العزيز شرف - علم الإعلام اللغوي- ص 12.
(2) نفسه ص 16.
(3) نفسه ص 16.
(4) ينظر نفسه ص 12.

وجرت المواضعة فيها على دلالتها، كما ورد في حديث أبي بكر، حين عهد لعمر (رضي الله عنهما) بالخلافة، قـــال: « كلكم ورم أنفـــه أي اغتاظ، لأن المغتـــاظ يرم أنفه ويحمر، فقد عبر أصدق تعبير وأكثره لباقة، عمّا أصاب الحاضرين من حسد وغيره، عن طريق ما علت أنـــوفهم من احمرار، (...) وهـــي لفظة إشارية تحكي الواقع بصدق ويقين »[1]، ومن ذلك أيضًا احمرار الوجه عند الخجل وبياض الشفتين دليل العطش، وهذا كله تواضع من الملاحظة، أو مقدمات المرض، أي الحالات الدالة على مرض عضوي معين، ككثرة العطس دليل على بداية الزكام، وإمَّا المسلمات التي لا تحتاج إلى حجة أو برهان، و إمَّا الخبر المتواتر من الخاصة أو الأنبياء والرسل، كوحدانية الله عز وجل وربوبيته، « وكل هذا يوجب العلم »[2] والحجة القائمة في ذلك هي البرهان.

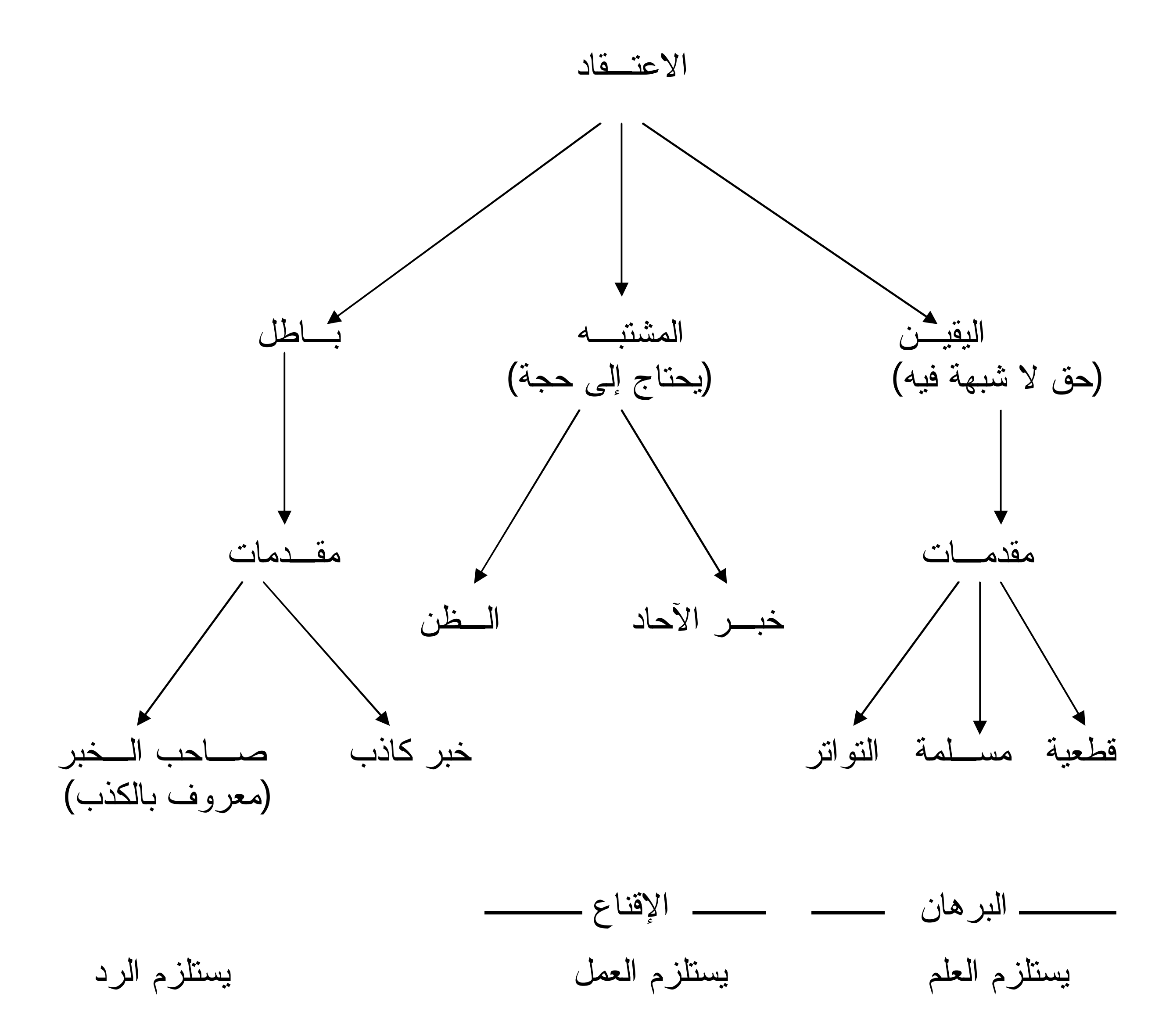
ب- ما يشتبه فيه: وهو ما يحتاج إلى التثبيت والاحتجاج، وطريقته خبر الآحاد، وهو الذي ينفرد به شخص واحد دون غيره ولم تظهر فيه مقدمات قطعية، توجب العلم به، وقد تكون طريقته الظن فيما لا يتقبله العقل للوهلة الأولى، إنما يستحسن الاستدلال عليه وإقامة الحجة له، « وكل ظنٍّ قويت شواهده، وكان الاحتياط في الرأي والدين تغلبه، وكل هذه الأمور التي عددناها، فإنما يأتي العلم بها على التصديق لا على اليقين والحجة على معنى الإقناع، لا البرهان وهي توجب العمل ولا توجب العلم »[3] وذلك كذكر بطولات السابقين وما أقاموا من عدل بينهم، فهذا يوجب العمل من باب الإئتساء بهم.

ج- باطل: وهو الذي يردُّ بلا شبهة، وطريقته تكون المقدمات الكاذبة التي تنبئ منذ البداية عن نتيجة باطلة، وقد تكون أخبار الكذابين الذين اشتهروا بهذه الصفة، فلا يؤخذ من كلامهم يقين، لذلك قالت العرب قديمًا: (ما بني على باطل فهو باطل)، وهذا ما يستلزم الردّ والرفض.

ويمكن مما سبق أن نوضح عنصر الاعتقاد في المخطط التالي:

---

(1) محمد كشاش – اللغة والحواس- ص 21.
(2) عبد العزيز شرف - علم الإعلام اللغوي- ص 17.
(3) نفسه ص 18.


الاعتــقاد
اليقيــن
(حق لا شبهة فيه)
المشتبــه
(يحتاج إلى حجة)
بــاطل
مقدمــات
خبــر الآحاد
الــظن
مقــدمات
قطعية
مســلمة
التواتر
خبر كاذب
صــاحب الــخبر
(معروف بالكذب)
البرهان
الإقناع
يستلزم العلم
يستلزم العمل
يستلزم الرد

وهكذا يتضح أن الدّلالات، تكون عامة متعارف عليها كالمسلمات مثلاً، أو خاصة، بل قد تكون لفظية أو غير لفظية، وأنَّ وجهي البيان عند ابن وهب (الاعتبار/ الاعتقاد) يعتبران وجهيْ التواصل الذاتي بالمصطلح الحديث، وهما يكشفان عن الطريقة التي يتصل بها الإنسان مع ذاته وينفرد بها وحده، كما يتضح من خلال ما سبق بأن نموذج الاتصال الذي قدّمه بارلند يتفق مع ما جاء به ابن وهب (الاعتبار والاعتقاد) من حيث أهمية الدلالات المتنوعة التي تضع التأثيرات الداخلية والخارجية.

**ج- الصمت / الإنصات:**

لا نقصد بالصمت هنا الانقطاع عن الكلام بغير حاجة، بقدر ما نقصد به الإنصات وحسن الإصغاء للمتكلم، مما يفيد صاحبه في العملية التواصلية على التفكُّر والتدبُّر، فإذا ما أراد الــسامع أن يصل إلى درجة العلم بالــشيء، فــعليه بحسن السمع والإصغـــاء، فــ « أول العلم الصمت، والثاني الاستماع »[(1)] على حدِّ رأي الجاحظ، الذي قرن الصمت بالاستماع، ليدلل على فائدة الصمت حينما يكون بغرض الإصغاء، فالمستمع الصامت في أغلبْ الأحيان، إنما ينصت إلى محدثه ويجري عمليات تواصلية داخل ذاته، وهو يفكّر في الردِّ عليه أو ما يمكن أن يضيفه إلى ما يسمع من قول[(2)].

وهذه العملية الذاتية التي يقوم بها السامع المنصت تتحوّل فيما بعد إلى تواصل بين طرفين خارجيين.

ويؤكد الجاحظ على الصمت في هذا الموضع، وهو يورد ما أوصى به عبد الله بن الحسن إبنه محمدا إذ يقول: « أي بنيَّ: إنِّي مُؤدٍّ إليك حق الله في حسن تأديبك، فأدِّ إليَّ حقَّ الله في حسن الاستماع (...) واستعن على الكلام بطول الفكر، في المواطن التي تدعوك فيها نفسك إلى القول، فإن للقول ساعات يضرُّ فيها خطؤه، ولا ينفع صوابه »[(3)]

وهنا يدعـــو عبد الله بن الحسن ابنه إلى حســـن الإصغاء للتدبُّـــر فيما يقول، ثم ينصح له بطول الــفكر، والتفكُّـــر فيما يقـــال إذا أراد الــكلام، وفي ذلك إشـــارة إلى الاستعانـــة بالصمت والإنصـــات، إذا أراد المرء أن يشـــارك غيره في الــكلام. كما أنه مـــن آداب الــمحاورة الإنصات والتدبُّـــر فيما يقـــال، لــذلك يقـــول محمد بن حــفص: « كـــن إلى الاستمـــاع أسرع منك إلى الــقول »[(4)]

---

(1) الجاحظ - البيان والتبيين- 198/2.
(2) ينظر جان كلود مارتان – ما التواصل؟ تر: س ب، ص19.
(3) الجاحظ - البيان والتبيين- 174/2.
(4) نفسه: 290/2.

وذلك حتى ترتب ما ستقول بعد أن تسمع قول مخاطبك، ففي هذا الترتيب للمعاني داخل النفس يحصل التواصل الذاتي. بل إن المولى عز وجل يأمرنا بالاستماع والإنصات للتدبر والتفكر في آيات الذكر الحكيم. فيقول: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٢٠٤ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٢٠٥﴾[1]

فالله عز وجلّ في قوله السابق يدعوا إلى الإنصات عندما يقرأ القرآن الكريم، من أجل التدبر في آياته، وحتّى يذكر الإنسان ربه في نفسه تضرُّعًا وخيفة، وهو يأمر بذلك دون الجهر من القول؛ أي أن يكون هذا الذكر في نفس الإنسان، مما يؤكد حدوث التواصل الذاتي عن طريق الصمت الايجابي، ونقصد به الصمت الذي نكون فيه منصتين إلى غيرنا.

بل إن الصمت وحسن الإصغاء طريق إلى العلم، ومن ذلك ما يورده الجاحظ من كلام الحسن البصري: « إذا جالست العلماء، فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلَّم حسن الاستماع، كما تتعلم حسن القول ولا تقطع على أحد حديثه »[2]

وفي السياق ذاته، يطبق الجاحظ من قول أعرابي كان يجالس الشّعبي فيطيل الصمت، « فسئل عن طول صمته فقال: أسمع فأعلم، وأسكت فأسلم »[3] وهذا مما يدل على أن أول سبيل العلم الصمت الذي يكون فيه صاحبه منصتًا لمخاطبه، متدبِّرًا في قوله، فالجاحظ يدعو إلى الصمت شريطة أن يكون الإنسان معينًا على التفكُّر والتدبُّر، فالصمت عنده طريق إلى الصواب.

---

(1) الأعراف 205/204.
(2) الجاحظ - البيان والتبيين- 290/2-291.
(3) نفسه: 194/1.

وجاء في الدلائل: « واعلم أنه لا يصادف القول (...) موقعًا من السامع ولا يجد لديه قبولاً حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة، وحتى يكون ممّن تحدثه نفسه بأنَّ لما يومئ إليه من الحسن واللطف أصلاً، وحتى تختلف الحال عليه عند تأمل الـــكلام، فيجد الأريحية »[1]

ومن هنا يبدو أن الجرجاني، قد اشترط في السامع استعداده لوظيفة التواصل، التي لا تكون إلاّ بحسن الإصغاء (الصمت)، وهذا ما يجري داخل النفس الإنسانية حين يكون الإنسان متدبرًا في قول محدثه، ويثير في نفسه عدّة تساؤلات، ويعدُّ الرَّدَّ أو ما يستطيع إضافته للكلام في حوار داخلي، يقيم من خلاله تواصلاً ذاتيا، قبل أن يقيمه مع الآخرين.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الصمت مذموم إن لم يكن لفائدة الاستماع والتدبُّر، والأخذ والرَّدّ داخل النفس، كما أن عنصر الصمت، لا يعدُّ من التواصل الذاتي إن لم يكن هناك طرفا آخر في التواصل، إذ يحدث التواصل الذاتي في حين يتواصل الإنسان مع غيره، أو يكون في حال سماعه خطبة ليفسر معانيها، ويقف عندها.

وخلاصة ما سبق أن التواصل الذاتي في البلاغة العربية يقوم على الاعتبار أو ما سماه الجاحظ بالنصبة، وقد ركزوا فيه على الباطن أكثر من الظاهر، كما يقوم على الاعتقاد أيضا، وهو الذي يحصل بعد الاعتبار فيصير المرء عالمًا بمعاني الأشياء، كما ذكروا كذلك الصمت الذي لا يكون مفيدا إلا حين حسن السمع والإصغاء، مما يعين المخاطب على مواصلة التواصل مع محدثه، فيقيم هو في ذاته تواصلاً ذاتيا قبل أن يقيمه مع غيره.

والتواصل الذاتي عمومًا يتداخل - في كثير من الأحيان- مع أشكال التواصل الأخرى، وسنوضح ذلك في الفصول الآتية.

---

[1] الجرجاني – الدلائل- ص 190.

**توطـئة:**

من المعلوم أن الكون كله، بما فيه من كائنات ومخلوقات يتواصل، غير أن الإنسان يتميز عن بقية ما في الكون في طريقة تواصله وآلياته وأشكاله، وقد رأينا فيما سبق، كيف يتواصل الإنسان مع ذاته، فيحلل ويناقش ويفكّر ويقرِّر ...إلخ، وفي ذلك كله تواصل يحدث داخل النفس الإنسانية.

يضاف إلى ذلك كله، أنه يتواصل مع غيره بطرق عدَّة، بل إن الأصل في التواصل أن يكون بين شخصين أو أكثر، ويدعى هذا بـــ "التواصل الشخصي".

« تتجاذب مفهوم التواصل حقول معرفية بالغة التنوع وتكاد تشمل كل المنتوج الإنساني، فكل ما يمكن أن يشتغل كرابط بين الإنسان وما يوجد خارجه، وكل الأشكال الثقافية التي تتحدد من خلالها هوية الأفراد، وتخبر عن انتماءاتهم إلى ثقافة بعينها – لغة ولباسًا وطقوسًا، ونمط عيش- يجب النظر إليها باعتبارها وقائع إبلاغية تندرج ضمن حالات الاجتماع الإنساني، الذي يتخلى داخله الفرد طوعًا عن ملكوته الخاص، لكي يتوحّد مع الآخرين »[1]، وهذا مما يعني أنّ التواصل الشخصي الحاصل بين شخصين يتطلب التجرّد من الملكوت الخاص ليظهر فيه الإنسان بشكل ينبئ عن الهوية التواصلية، ولعلَّ علماء اللغة من بين الذين اعتنوا بالتواصل وأشكاله وعناصره، من حيث النظر إلى وظيفة اللغة.

---

[1] سعيد بنكراد –استراتيجيات التواصل (من اللفظ إلى الإيماءة)- ص 03.

## I - مفهوم التواصل الشخصي وعناصره

### أ- مفهومه:

إذا كان الإنسان يقيم تواصلا ذاتيا بينه وبين نفسه في تفكيره وتقريره ...إلخ، فإنه بالضرورة سيتواصل مع غيره عن طريق وسائل عدّة فـ « النوع الثاني من الاتصال ... هو الاتصال الشخصي، أي بين فرد، وفرد آخر »[(1)].

ويكون هذا الاتصال غالبا من أجل الإفادة، لأن « التخاطب، هو إجمالاً عبارة عن إلقاء جانبين لأقوال بغرض إفهام كلٍّ منهما الآخر مقصودًا معينًا »[(2)]، هذا ممَّا يعني أنَّ التواصل الشخصي هو إبلاغ رسالة من متكلّم إلى سامع في سياق معين، قصد الفهم والإفهام، وهذا بادٍ في تعريف البلاغة عند العلماء العرب، إذ ذهبوا إلى أن البلاغة سميت بلاغة « لأنَّها تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه »[(3)]، مما يبين أن العملية قائمة على الفهم والإفهام، بين متكلم وسامع، فالبلاغة العربية إذن مبنية على الوضوح من أجل بلوغ الغاية التواصلية بين المتكلم والسامع فـ « لا يُظَنُّ أنَّ البلاغة إنما هي الإغراب في اللفظ، والتعمّق في المعنى، فإنَّ أصل الفصيح من الكلام، من أفصح عن المعنى، والبليغ من بلغ المراد، ومن ذلك اشتقاقًا فأفصح الكلام ما أفصح عن معانيه ولم يحوج السامع إلى تفسير له، بعد ألاَّ يكون كلامًا ساقطًا، ولا للفظ العامية مشبها »[(4)].

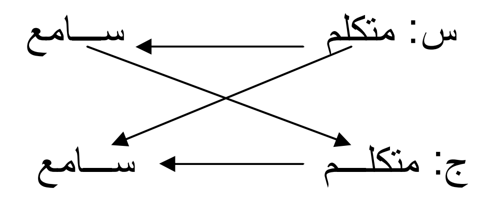
ولأن التواصل الشخصي يبنى على عنصرين أساسيين هما: المتكلم والسامع، فإنهما يتبادلان الوظائف حتما، حيث « يبنى التواصل على أساس تبادل الوظائف بين المخاطِبِ والمخاطَب عبر نفس الوضع Maime Code، ليتحول المتلقي نفسه

---

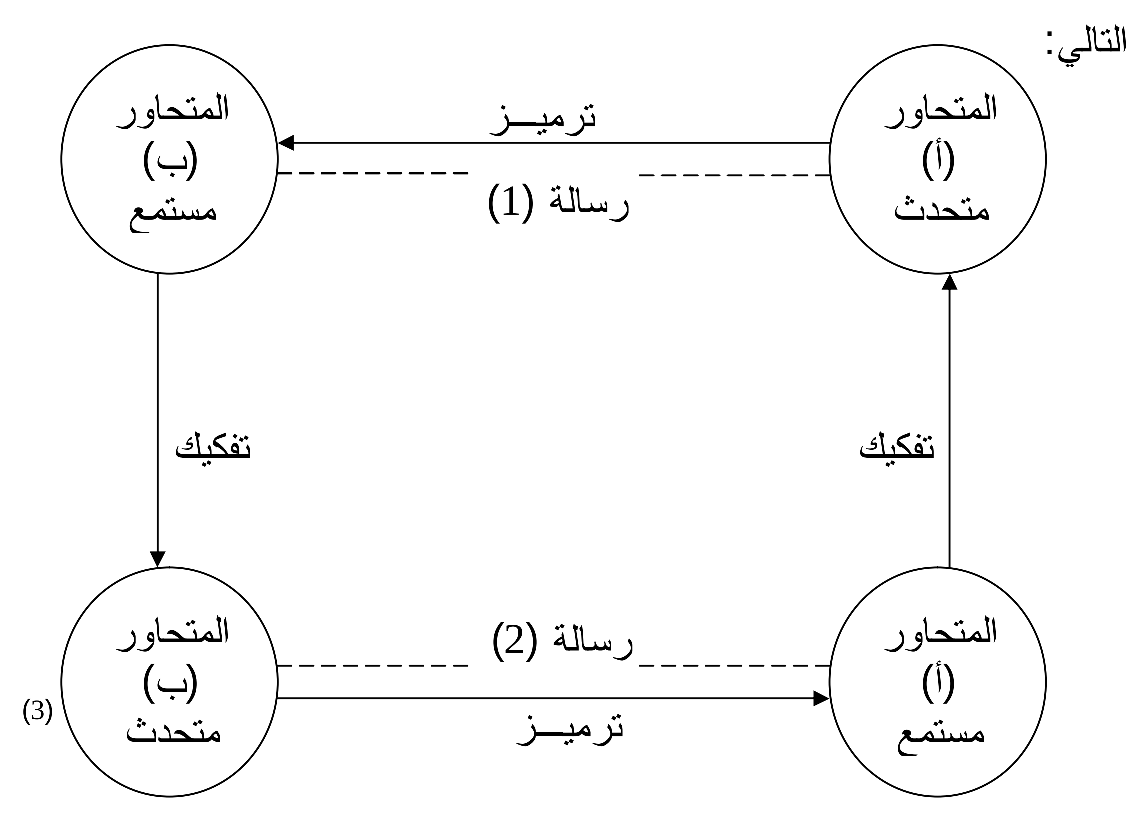
(1) عبد العزيز شرف – علم الإعلام اللغوي- ص 18.
(2) طه عبد الرحمن – اللسان والميزان- ص 237.
(3) العكسري – الصناعتين- ص 15.
(4) ابن وهب – البرهان- ص 163.

إلى مرسِل، والمرسِل إلى متلقي خلال عملية الإرسال والاستقبال »[1].

وهكذا تتم عملية التواصل بين الطرفين من خلال تبادل الوظائف، إذ يصبح المتكلم مستمعا بعد إلقاء سؤاله أو استفساره في حين يصبح المستمع متكلما عند الرّد أو الإجابة كعملية الاستجواب مثلا:




« والمجال الإيصالي الذي ينعقد بين المتكلم والمخاطب، وقد يتهيأ عن كثب بأن يلقي أحدهما الآخر، أو قد يترامى إلى ما هو أوسع من ذلك مدًى في المكان والزمان كالذي يقع في الكلام المسجَّل والعبارات المدونة »[2]، ويمكن تجسيد هذا التبادل في المخطط التالي:




(1) ذهبية حمو الحاج – لسانيات التلفظ، وتداولية الخطاب- ص 150.
(2) لطفي عبد البديع – التركيب اللغوي للأدب- ص 60.
(3) الطاهر بومزبر – التواصل اللساني والشعرية- ص 4.

ويشترط في هذه الدورة أن يؤدي المتكلم رسالته كاملة على أحسن وجه وأفضل صياغة، حتى تلقى استجابة من طرف المستمع، ويقام التواصل بينهما حيث « لا يكون المحاور ناطقًا حقيقيا إلا إذا تكلم لسانًا طبيعيًا، وحَصَّل تحصيلاً كافيا، صيغه الصرفية وقواعده النحوية وأوجه دلالات ألفاظه وأساليبه في التعبير والتبليغ »[1].

ويقابـل التواصل الـشخصي في البلاغة العربية، البيان باللســان، حسب تصنيف ابن وهب « ذلك أن ما يعتقده الإنسان من بيان الاعتقــاد، ويحصل منه غير متعدٍ إلى غيره »[2]، من خلال ما وقر في قلبه مما يعتقده، ليتحول في هذه الصورة إلى شكل آخر من أشكال التواصل، لا يعتمد على المرء ذاته باعتباره مرسلا، ومرسلاً إليه، و إنما يصبح خارجيًّا بين طرفين عن طريق اللغة باعتبارها وسيلة أو قناةً للتواصل. « فاللغة وسيلة للتواصل البشري في مختلف المجالات، فوظيفتها الأساسية هي التواصل ولابد لتحقيق هذه المهمّة من تأثر وتأثير عند استخدام اللغة لإكمال عملية التواصل »[3]، وذلك بتبادل المتكلم والسامع المهام، عن طريق التأثير، والتأثُّر، فيكون كُلٌّ منهما (متكلمًا وسامعًا) بالتناوب.

ويقوم هذا الشكل على عناصر أساسية، إذ « يقوم المرسل (أو المتكلم) بتوجيه رسالة إلى المرسل إليه (أو المخاطب) وتستند هذه الرسالة إلى سياق (أو مرجع) يفهمه المرسل والمرسل إليه فهمًا جيدًا، وتقوم على سنن ... مشترك بين الطرفين، جزئيا أو كليا، وتقوم بالــربط بينهما قنـــاة تواصل تسمح بربط فيزيائـــي ونفسي للتواصل، والإبقاء عليه أو قطعه »[4]، ومن هنا يتضح أن التواصل الشخصي يقوم على عناصر ستة، هي تلك التي ذكرها جاكبسون في مخططه.

---

[1] طه عبد الرحمان – في أصول الحوار وتجديد علم الكلام- ص 37.
[2] عبد العزيز شرف – علم الإعلام اللغوي- ص 19.
[3] عيسى عودة برهومة – تمثيلات اللغة في الخطاب السياسي- ص 127.
[4] عمر أوكان – اللغة والخطاب- ص 49.

**ب- عناصره:**

1/ المرسل: (Destinateur)

ونقصد به المتكلم الحاضر ويعتبر العنصر الأهم في العملة التواصلية فمنه ينطلق الخطاب ويبدأ التواصل، و « المتكلم من وقع الكلام من قصده وإرادته واعتقاده ... والذي يدل على ذلك أن أهل اللغة متى علموا واعتقدوا وقوع الكلام بحسب أحوال أحدنا، وصفوه بأنه متكلم، ومتى لم يعلموا ذلك أو يعتقدوه، لم يصفوه »[1]، والمقصود بالمتكلم هو المرسل، « باعتباره الذات المحورية في إنتاج الخطاب، لأنه هو الذي يتلفظ به من أجل التعبير عن مقاصد معينة وبغرض تحقيق هدف فيه »[2].

ويعتبر المرسل هو المحرك للمرسل إليه، لأنه « مصدر الخطاب المقدم إذ يعتبر ركنًا حيويًّا في الدائرة التواصلية، وهو الباعث الأوّل على إنشاء خطاب يوجه إلى المرسل إليه في شكل رسالة »[3].

2/ المرسل إليه: (Destinataire)

يوجه المرسل رسالته إلى المرسل إليه –الذي يقابله- « داخل الدائرة التواصلية، أثناء التخاطب ويقوم المرسل إليه بعملية الـــتفكيك décodage، لكل أجزاء الرسالة »[4]، ومن ذلك فـــالمرسل إليه عنصر مهمٌّ كذلك في الدائرة الـــتواصلية، إذ يكون « هو الطرف الآخر الذي يوجه إليه الـــمرسل خطابه عمدًا »[5]، فهـــو مكوّن أساسي في العمليات الـــتخاطبية والـــتواصلية ومن جانب آخر، فإن المرسل إليـــه /المتلقي، عند الـــبلاغيين ذو أهميـــة قد تفوق أهمية المرسل، الذي لولا وجود وجهة لخطابه ما كـــان ليكـــون،

(1) الخفاجي – سر الفصاحة- ص 44.
(2) عبد الهادي بن ظافر الشهري – استراتيجيات الخطاب- ص 45.
(3) الطاهر بومزبر – التواصل اللساني والشعرية- ص 24.
(4) نفسه ص 25.
(5) عبد الهادي بن ظافر الشهري – استراتيجيات الخطاب- ص 47.

« ففي النموذج البلاغي للتواصل يحتل متلقي الخطاب المقام الأوّل بدون منازع »[1]، حيث أن قيام التواصل مرتبط أصلاً بوجود مخاطب يتفاعل معه المرسل، ومن خلال معرفته للمرسل إليه تكون طريقة الخطاب، ويختار الإستراتيجية المناسبة له.

ويولي البلاغيون أهمية كبيرة للمرسل إليه، « فبناء الخطاب وتداوله مرهون – إلى حد كبير - بمعرفة حاله أو بافتراض ذلك الحال، والافتراض المسبق ركن ركين في النظام البلاغي العربي، إذ العناية في المقام الأوّل موجهة إلى المرسل إليه، حتى فيما يعرف بالمحسنات البديعية، بوصفها تحقق هدف المرسل من الخطاب، وذلك بالتأثير فيه، فالعناية بالمحسنات ليست من قبيل الزخرفة اللفظية، أو إبراز قدرات المرسل اللغوية كما يشاع عن ذلك »[2]، لذا فإننا نجد أهل البلاغة يعيبون كثرة الزخرفة اللفظية دون داع لذلك، ما لم تكن بقدر التأثير على المرسل إليه، وقد أطلق البلاغيون العرب على المتلقي اسم (السامع) باعتبار أنه متلقٍ لخطاب متكلم.

وقد ركزت البلاغة العربية على آداب السمع، حيث « كان مطرق بن عبد الله يقول: لا تقبل بحديثك على من لا يقبل عليك بوجهه، وقال عبد الله بن مسعود: حدّث الناس ما حدجوك بأبصارهم، وأذنوا لك بأسماعهم، (...) و إذا رأيت منهم فترة فأمسك »[3]، كما حثُّوا على حسن الاستماع، ودعوا إلى تعلمه قبل تعلم الكلام « قال الحسن: إذا جالست العلماء، فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلّم حسن الاستماع كما تتعلم حسن القول، ولا تقطع على أحد حديثه »[4]، فمن حسن لاستماع وآدابه ألاّ يقطع السامع حديث المتكلم، حتى يتم ما في ذهنه من أفكار يريد نقلها إليه، ويرى ابن وهب أنه ينبغي على المرء أن يتعلم حسن الاستماع كما يتعلم حسن القول.[5]

---

(1) هنري بليث – البلاغة والأسلوبية (نحو نموذج سيميائي لتحليل النص)- ص 38.
(2) عبد الهادي بن ظافر الشهري- استراتيجيات الخطاب- 48/47.
(3) الجاحظ - البيان والتبيين- 104/1.
(4) نفسه 290/2-191.
(5) ينظر ابن وهب – البرهان- 153.

3/ الرسالة: (Message)

وبها يتحقــق التواصل إذ، تعتبــر ثمرة العملية الــتواصلية بين الطرفيــن، أو هي « الجانــب الملموس في العملية التخــاطبية، حيث تتجســد عندهــا أفكار المرســل في صــورة سمعية، لمَّا يكــون الــتخاطب شفهيا»[1]، ومن هنا تبــدو أشكال الرسالة متعددة إمَّا كلامًا شفاهيًّا، أو إيحائيًّا عن طريق الإشارة وغيرها.

وقد تكون كتابة، فالرسالة إذن هي « النص الكلامي أو الشفوي أو الإيحائي أو أي شكل كان فهو يمثل رسالة موحية تتحرك لتصل إلى الطريق الآخر الذي يكون مهيأً لمثل هذه الحركات أو الأفعال الخطابية »[2].

4/ السياق: (Contexte)

وهو وضع ما نتحدث عنه من موضوعات في سياق معين، فـــ « لكل رسالة... سياق معين مضبوط قيلت فيه، ولا تفهم مكوناتها الجزئية أو تفك رموزها السَّننية إلاَّ بالإحالة على الملابسات التي أنجزت فيها الرسالة، قصد إدراك القيمة الإخبارية للخطاب، ولهذا ألحَّ جاكبسون على السياق باعتباره العامل المفصل للرسالة »[3]، فبدونه قد يتعثر المعنى بين المرسل والمرسل إليه، إذا لم تظهر الرسالة داخل سياق معين من خلاله يتوصل المتلقي إلى قصد الملقي، لتستمر عجلة التواصل بينهما.

5/ القناة: (Canal)

وهنا نتحدث في (القناة) عن اللغة باعتبارها وعاءً للعمل التخاطبي، فـــ « هي التي تسمح بقيام التواصل بين المرسل والمرسل إليه، وعبرها تصل الرسالة من نقطة معينة

(1) الطاهر بومزبر – التواصل اللساني والشعرية- 27.
(2) عيسى عودة برهومة – تمثيلات اللغة في الخطاب السياسي- ص 125.
(3) الطاهر بومزبر – التواصل اللساني والشعرية- ص 30.

إلى نقطة أخرى »[1]، وقد تكون القناة غير اللغة المنطوقة، كالإشارة مثلاً أو العلامة السيميائية، لكن باعتبار أن التواصل الشخصي يكون شفويًّا بين شخصين –غالبًا- فالقناة حتما هي اللغة المنطوقة أو الإشارة أو هما معًا.

6/ السنن: (Code)

أو ما يسمى بـــ (الشفرة) لأنه عبارة عن مواضعة بين شخصين أو أكثر، من أجل إقامة التواصل، وهو « نسق القواعد المشتركة بين الباث والمتلقي، والذي بدونه لا يمكن للرسالة أن تفهم أو تؤوّل »[2]، فوجود السنن المشترك بين المتخاطبين يبيِّن قصدية المتكلم، ويعين السامع على الفهم، ومن ثَمَّ تستمر العملية التواصلية.

ويعتبر السنن « القانون المنظم للقيم الإخبارية والهرم التسلسلي الذي ينظم عبر نقاطه التقليدية المشتـــركة بين المرسل والمرسل إليه كل نمط تركيبي، فمنه ينطلق الباث عندما يرسل رسالة خطابية معينة، حيث يعمل على الترميز »[3]، ومن هنا يبدأ عمل المرسل إليه بفك ذلك الترميز، وحتى يتم العمل بطريقة منظمة لابد أن يكون هناك سنن أو اتفاق مسبق، ودليل ذلك ما يروى من نوادر الـــعرب، حيث « وقع عيسى بن حميـــر النحوي عن حماره فاجتمع الناس عليه فقـــال لهم: مالكم تكأكأتم عَلَـــيَّ، تكأكـــؤكم على ذي جِنَّـــة؟ افرنقعوا عني، فقالوا: دعوه، فإن شيطانه يتكلّـــم بالهندية، وهكـــذا فنجاح الـــتواصل يتمثل في اشتراك الـــباث والمتلقي في السنن نفسه، واحترامهما له، لأن عملية الإسنان والاستنان، تتم بطريقة مثلى وعلى الوجه الصحيح »[4].

---

(1) عمر أوكان –اللغة والخطاب- ص 49.
(2) نفسه ص 48.
(3) نفسه ص 39.
(4) نفسه ص39.

وقد يؤدي الاختلاف المعجمي أيضًا إلى عدم الفهم والتفاهم بين الطرفين أو إلى الفهم العكسي –أحيانا- خاصة « حين يتعلق الخطاب بين باث ومستقبل في أحد المستويات المتباين فيها دلاليًّا، كدلالة أهل الحجاز بالقرء على الطهر، ودلالة أهل العراق بها (القرء)، على الحيض »[1]، وقد يقع ذلك في اختلاف الألسن واللغات، إذ يقول ابن وهب في هذا الـــمضمار « ألا ترى أن الشمس واحدة في ذاتها، كذلك في اعتقاد العربي والـــعجمي، فإذا صرت إلى اسمها وجدته في كل لسان من الألسن، خلاف ما هو في غيره »[2]، فالشيء في ذاته واحد، وفي الاعتقاد أيضًا واحد، إلاَّ أن التسمية مختلفة، بحسب اختلاف الألسن، وقد مثل ابن وهب لذلك بالشمس، والأمثلة على ذلك كثيرة، حتى من حيث التذكير والتأنيث، فالقمر في اللغة العربية مثلا، مذكر أما في الفرنسية فمؤنث (la lune).

---

(1) عبد الجليل مرتاض – اللسانيات الجغرافية في التراث اللغوي العربي- ص 123.
(2) ابن وهب – البرهان- ص 58.

## II – الـــبيان باللســـان

يعتبر اللسان ميزة الإنسان من بين جميع الكائنات والمخلوقات، وهو أهم وأبرز أوجه التواصل الإنساني، ويشترط العرب في اللسان البيان، لذا « قال صاحب المنطق: حدُّ الإنسان، الناطق المبين »[1] أي الموضح لمرادة المفهم لغيره، عن طريق النطق، لذا جمع بين النطق الإبانـــة، حيث « قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾* لأن مدار الأمر على الـــبيان والتبيين، وعلى الفهم والتفهُّـــم، وكلما كان اللسان أبين كان أحمد »[2]، لأن أهميَّة اللسان عند العرب تكمن في الوصول إلى المعنى وتقريب المفهوم إلى المخاطب، لذا روى الجاحظ في تعريف البلاغة بأنها: « تصحيح الأقسام واختيار الكلام »[3] وذلك حتى يصل بمعناه إلى المخاطب ويبين مراده له.

كما عرَّف العسكري الفصاحة بقوله: « الفصاحة لسان زين، واللسان هنا الكلام »[4]، ويبدو هنا تركيز البلاغيين العرب على اللسان، فصاحة وبلاغة. لأن « اللسان ترجمان اللّب وبريد القلب والمبين عن الاعتقاد بالصِّحَّة والفساد، كما قال الشاعر:

إنّ الكلام لفي الفؤاد وإنَّما ùù جُعل اللّسّان على الفؤاد دليلا »[5]

بل إن الـــنبي ﷺ قـــد مدح اللسان، « وقد سأل الـــعباس فقال: فيم الجمال يا رسول الله؟ فقـــال: في اللسان »[6]، وهـــذا مما يبـــدي المكانة الـــتي يحتلُّهـــا اللسان والـــمرتبة

---

(1) الجاحظ - البيان والتبيين- 77/1.
* سورة إبراهيم، الآية 04.
(2) نفسه 11/1.
(3) نفسه 88/1.
(4) العسكري – الصناعتين- ص 18.
(5) ابن وهب – البرهان- ص 59.
(6) نفسه ص 59.

المُقَــدَّمة الــتي يعنى بها، لأن «أول آلات الــبلاغة جــودة القريحة وطلاقة اللسان »[1]، فصاحب القريحة الجيدة، لا يكون بليغًا ما لم يكن لسانه طليقًا، يحسن ترجمة قريحته، على أكمل وجه وأحسنه، لأن الغاية هي الإفهام، لذا « قال العتابي: كل من أفهمك حاجته فهو بليغ»[2]، ومن لم يستطع الوصول إلى إفهام مخاطبه، فلا يوصف بها، « وقال محمد بن الحنيفية رضي الله عنه: البلاغة قول تضطر العقول إلى فهمه بأسهل العبارة »[3]، وأيسر سبيل، فإن أطال وكرّر مرّات، فهو متعثّر.

كما تجدر الإشارة إلى أن العرب، لم يركزوا على البيان من جانب تعريفهم للبلاغة، باعتباره وسيلة فقط، لكنهم ركزوا في أوصافهم كذلك ومدحوه أيَّما مدح، كقول بعض البلغاء: « اللسان آداة يظهر بها حسن البيان، وظاهر يخبر عن الضمير، وشاهد ينبئك عن غائب، وحاكم يفصل به الخطاب، وواعظ ينهى عن القبيح، ومزيِّن يدعو إلى الحسن، وزارع يحرث المودّة وحاصد يحصد الضغينة، ومُله يونق الاستماع »[4]

وليست البلاغة حكرًا على المتكلم/ المخاطب فقط، بل « ربما البلاغة في الاستماع، فإن المخاطَب إذا لم يحسن الاستماع، لم يقف على المعنى المؤدي إليه الخطاب، والاستماع الحسن عون البليغ على إفهام المعنى »[5]، لأن السامع هو من يعطي الفرصة للمتكلم أن يشرح ويفسر، حتى تُجنى الفائدة من التواصل القائم بينهما، لأن « الكلام يتعلق بالمعاني والفوائد، بالمواضعة، لا شيء من أحواله، وهو قبل المواضعة إذ لا اختصاص له، لذا جاز في الاسم الواحد أن تختلف مسمياته، لاختلاف اللغات، وهو بعد وقوع التواضع، يحتاج إلى قصد المتكلم، واستعماله فيما قرَّرته المواضعة »[6]

---

(1) العسكري – الصناعتين- ص 30.
(2) نفسه ص 20.
(3) نفسه ص 21.
(4) الجرجاني – الدلائل- ص 71.
(5) العسكري – الصناعتين- ص 25.
(6) الخفاجي - سر الفصاحة- (43/42)

إن البلاغة العربية قد اعتنت بالتواصل اللساني من جوانب عدّة من جانب المتكلّم، ومن جانب السامع، ومن جانب البيان والإفصاح « فالناس قد أكثروا من الدلالة على شرف الفصاحة، وعظيم قدر البيان والبلاغة، ونبهوا بطرق كثيرة وألفاظ مختلفة، وقد قال عزّ اسمه: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝﴾* ولم يكن تعالى يذكر البيان ها هنا إلاّ وهو من عظيم النعم على عبيده »[1]

تقوم البلاغة العربية على ثلاث علوم، أبرزها علم المعاني، الذي يعنى بالأسلوب وتقسيماته إلى خبر وإنشاء، حيث يقول السكاكي: « اعلم أنّ علم المعاني هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ مع تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره، وأعني بتراكيب الكلام، التراكيب الصادرة عمَّن له فضل تمييز ومعرفة... وأعني بخاصية التركيب– ما يسبق منه إلى الفهم عند سماع ذلك التركيب »[2]، فالسامع يفهم معنى كلام المتكلم حسب خواص الكلم، وذلك حسب « فصاحة المتكلّم، فهي ملكه يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح »[3]، ويظهر هنا مدى تركيز العلماء العرب على مبدأ (الإفادة) الذي يقيم التواصل بين المتكلم والسامع، بل من أجله يقام التواصل، وهو ما نراه عند التداوليين الذين ركزوا على مبدأ الإفادة والسياق.

لقد قسَّم البلاغيون علم المعاني إلى خبر وإنشاء، ولكل فرع منهما مرجعية معينة، فـ « مرجع الخبرية، احتمال الصدق والكذب إلى حكم المخبر، الذي يحكمه في خبره بمفهوم لمفهوم... فأما السبب في كون الخبر محتملاً للصدق والكذب، فهو إمكان تحقق ذلك الحكم مع كل واحد منهما من حيث أنه مخبر، ومرجع كون الخبر مفيدًا للمخاطب، إلى استفادة المخاطب منه ذلك الحكم، ويسمى هذا فائدة الخبر، كقولك: زيد عالم،

* سورة الرحمن، الآيات (1-2-3-4)
[1] السابق ص 60.
[2] السكاكي -المفتاح- ص 161.
[3] القزويني – الإيضاح في علوم البلاغة- ص 32.

لـــمن ليس واقفا على ذلك، أو استفادته منه مع أنك تعلم ذلك، كقولك لمن حفظ التوراة، قد حفظت التوراة، ويسمى هذا لازم الفائدة »[1]

وهذا الذي تكلم عنه السكاكي هو الخبر الحقيقي، الذي يلقى لأحد الغرضين دون الأغراض البلاغية، وهما: فائدة الخبر أو لازم الفائدة، وذلك بحسب المخبر عنه، فإن أخبرت عمَّا يجهله السامع فهو فائدة الخبر، وإن أنت أخبرته بما يعلمه، فهو لازم الفائدة، وإنما غاية المتكلم من ذلك هو إعلام المخاطب بأنه – أي المتكلم- على علم بالخبر كذلك.

أ/ ولــد النبي ﷺ عــام الــفيل ←—— فائدة الخبر (لمن لا يعلم ذلك)

ب/ لقد أدَّبْتَ بنيك باللين ←—— لازم الفائدة.

فإذا خرج الخبر عن الحقيقة، كان بحسب قصدية الملقي، وتعددت أغراضه ومن ذلك:

- قال تعالى على لسان زكريًا – عليه السلام- ﴿...إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا...﴾[2] ←—— الشكوى وإظهار الضعف.
- وقال: ﴿...وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ...﴾[3] ←—— الحث
- وقال أيضًا: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩﴾[4] ←—— الترهيب.
- قال جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ٣١ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ٣٢﴾[5] ←——الترغيب.
- وقـــال: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١﴾[6] ←—— التقرير.

---

(1) السكاكي – المفتاح- ص 166.
(2) سورة - مريم – الآية 04.
(3) سورة - الضحى – الآية 04.
(4) سورة - الحج – الآية 19.
(5) سورة - النبأ – الآيتان 31-32.
(6) سورة - المعارج – الآيات 19-20-21.

أما بحسب المخبَر واستعداداته الذهنية، فللخبر تقسيمات أخرى فــ « من المعلوم أنَّ حكم العقل حال إطلاق اللسان، هو أن يفرغ المتكلّم في قالب الإفادة ما ينطق به ...، فإذا ألقى الجملة الخبرية إلى من هو خالي الذهن عمَّا يُلقى إليه ليحضر طرفاها عنده، وينتقش في ذهنه استناد أحدهما إلى الآخر ثبوتًا، أو انتفاءً، كفى في ذلك الانتقاش حكمه ويتمكّن لمصادفته إيّاه خاليا... فتستغني الجملة عن مؤكدات الحكم، وسُمِّيَ هذا النوع من الخبر ابتدائيًا »[1]، والمقصود بالخبر الإبتدائي هو الذي يتلقاه السامع، وذهنه خالٍ، فيكون تقبله لخبر المتكلّم سريعًا، ويعرف هذا الضّرب من الخبر إذا خلا من أي نوع من أنواع التوكيدات.

أمَّا إذا « ألقاها إلى طالب متحيِّــر طرفاها عند دون الاستناد، فهو منه بين، بين، لينقــذه عن ورطة الحيرة، استُحسِن تقوية المنفذ بإدخال اللام في الجملة أو إنَّ، كنحــو: لزيد عارف، أو إنّ زيدًا عارفٌ، وسمي هذا النوع من الخبر طلبيًّا »[2]

وهذا الضرب الثــاني من أضرب الخبر الذي يكون فيه السامع متحيِّــرًا شاكًّــا في قبوله الخبر وتصديقه، فيؤكــد المتكلم كلامه بمؤكــد واحدٍ فقط « وإن ألقاها إلى حاكم فيها بخلافه، ليردّه إلى حكم نفسه، استوجب حكمــه ليترجَّــح تأكيدًا بحسب ما أشرب المخالف الإنكار، في اعتقــاد كنحو: صادق إنِّي، لمن أنكر صدقــك، وإنِّي لصادق لــمن بالغ إنكــار صدقــك، والله إني لصادق »[3]، ويسمى هذا النوع من الخبر إنكاريًّــا وهو – حسب ما سبق- الذي يكون فيه السامع منكرًا لخبر المتكلّم، فيضطر هذا الأخير إلى إدراج أكثر من مؤكّد في كلامه، وقد قال الكندي لأبي العبَّاس: « إنِّي لأجد في كلام العرب حشــوًا! فقال له أبو العباس: في أيِّ موضع وجدت ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولــون: "عبد الله قائم" ثمَّ يقولــون: " إنَّ عبد الله قائم"، ثم يقولــون: "إن عبد الله لقائم"،

---

(1) السكاكي- المفتاح- ص 170.
(2) نفسه ص 170.
(3) نفسه ص 171.

فالألفاظ متكررة والمعنى واحد، فقال أبو العبَّاس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم: "عبد الله قائم" إخبار قيامه، وقولهم: "إن عبد الله قائم" جواب سؤال سائل، وقولهم: "إن عبد الله لقائم" جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني »[1]، وهنا تكلم الملقي بحسب اعتقاد المتلقي، فالعبارة الواحدة أصبحت عبارات بحسب اعتقاد المتلقي، وقصدية الملقي، ونمثل فيما يلي لأضرب الخبر:

أ/ زيـــد عـــالـــم ← خبر ابتدائي

ب/ إنّ زيدًا عالمٌ ← خبر طلبي

ج/ إنَّ زيدًا لعالمٌ ← خبر إنكاري

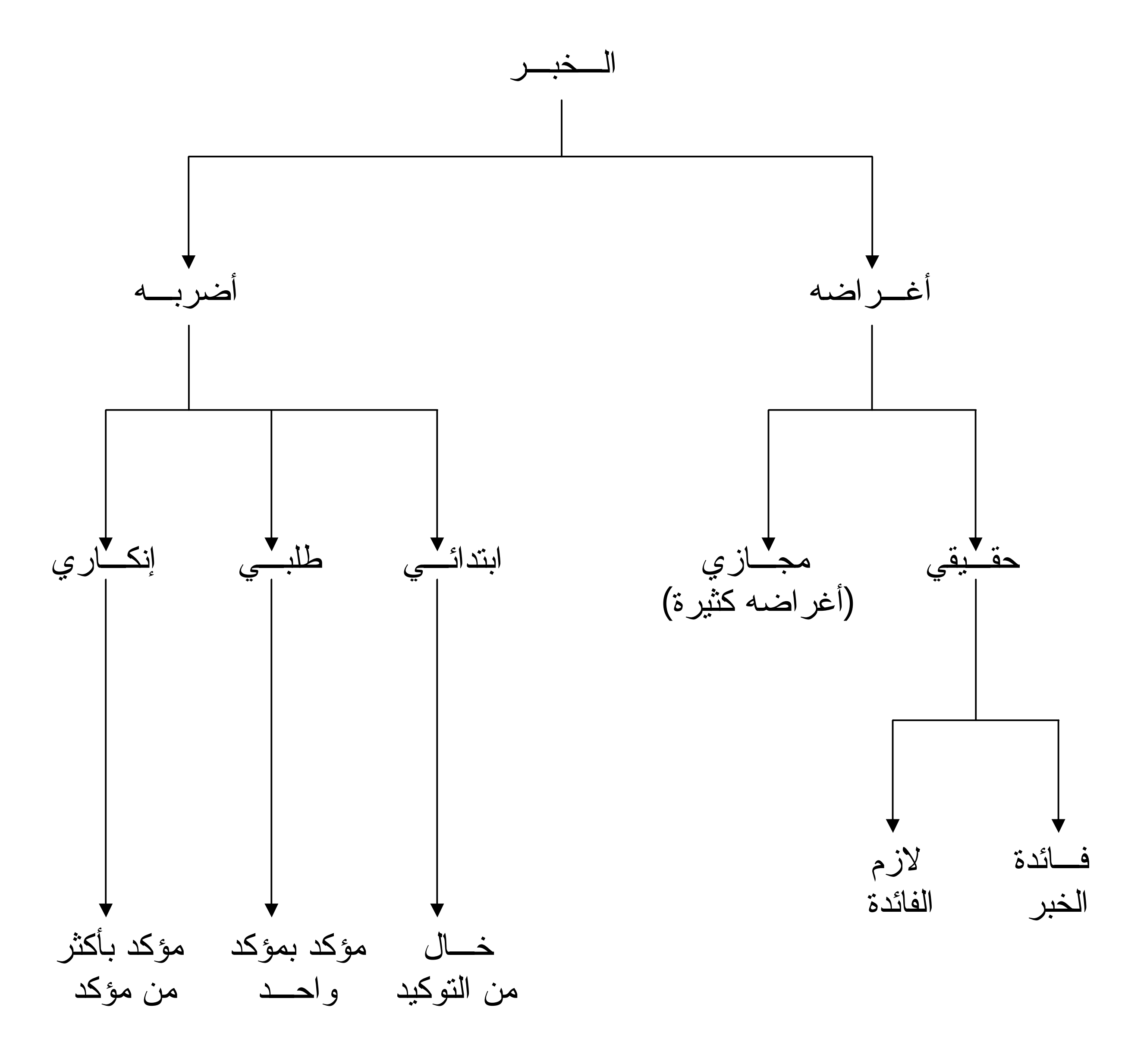
وحسب الفيلسوف سيرل، فإن الفرق بين هذه الأضرب يكمن في ما سمّاه، درجة الشدَّة للغرض المتضمَّن في القول.[2]

وفي الشكل الآتي نفصّل تقسيمات الخبر حسب الأغراض والأضرب:

---

(1) الجرجاني – الدلائل- ص 206.

(2) ينظر – مسعود صحراوي- التداولية عند العلماء العرب- ص 97/96.


الخبر
أغراضه
أضربه
حقيقي
مجازي
(أغراضه كثيرة)
ابتدائي
طلبي
إنكاري
فائدة الخبر
لازم الفائدة
خال من التوكيد
مؤكد بمؤكد واحد
مؤكد بأكثر من مؤكد

هـــذا بالنسبة للخبر، أمَّا الإنشاء، فينقسم إلى قسمين كبيرين هما: طلبي وغير طلبي، «وضربا الإنشاء الطلبي، وغير الطلبي ينقسمان إلى فروع جزئية، هي عبارة عن ظواهر أسلوبية فرعية متنوعة، إمَّا لتنوع الصّيغ اللغوية ذاتها وأساليبها، وإمَّا لتنوّع أغراضها التواصلية وإفادتها»[1]، وذلك حسب قصدية المتكلم، وما يريد إيصاله إلى المتلقي.

ويرى القزويني (توفي 739 هـ) أنَّ الإنشاء « ضربان: طلب وغير طلب، والطلب يستدعي مطلوبًا غير حاصل وقت الطلب لامتناع تحصيل الحاصل »[2]، فحين الأمر أو النداء مثلاً، فإننا نطلب وقوع شيء غير حاصل، فلو قلنا لأحد (أكتب) فإن فعل الكتابة غير حاصل حين النطق بفعل الأمر، وإنما هو طلب القيام بفعل الكتابة، وهذا ما ذهب إليه أوستين بقوله: «العبارة الإنشائية ... لا يقصد بها قول شيء ما، بل يقصد بها إنجاز هذا الشيء»[3]

أمَّا بالنسبة للطلب، فإن له أغراض حقيقية وأخرى مجازية تتغير بحسب الغرض التواصلي، فـ « متى امتنع إجراء هذه الأبواب على الأصل، تولّد منها ما ناسب المقام »[4]، فليس مقام الأمر الحقيقي في أسلوب الأمر كمقام الالتماس أو الدعاء، وهذا ما نقف عليه في الأمثلة الآتية:

أ/ قال جلَّ وعلا: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[5] ← حقيقي

ب/ قال جلَّ وعلا: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾[6]

← التضرع- الدعاء

ج/ قال جلَّ وعلا:﴿..وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾[7] ←التماس

---

(1) مسعود صحراوي – التداولية عند العلماء العرب- ص 105.
(2) القزويني –الإيضاح- ص 131.
(3) أوستين – نظرية أفعال الكلام العامة (كيف ننجز الأشياء بالكلام)- ص 40.
(4) السكاكي –المفتاح- ص 304.
(5) سورة البقرة، الآية 43.
(6) سورة إبراهيم، الآية 41.
(7) سورة يوسف، الآية 42.

د/ قال جلَّ وعلا: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ...﴾[1] ⟵ التعجيز
ويكون ذلك في جميع أنواع الإنشاء الطلبي.

وخـــروج هذه الجمل عن الـــحقيقة، يكون بحســـب الغرض التواصلي للمتكلم، وبحسب الـــفعل المراد إنجـــازه من خلال القول، على اعتبـــار أنَّ الإنشاء لا يحتمل الـــصدق أو الكذب وإنما هو فـــعل القول، إذ « تتغيـــر صورة معرفة المخاطب أثنـــاء الـــتواصل تبعًـــا لأغراض المتكـــلّم، تغيُّـــرًا ملحوظًـــا... فنحن عندما نَعِـــدُ أو ننصح، إنما نريد أن يعلم المخاطب بأننا نقدم له وعدًا ونسدي له نصحًا »[2]، ومن خلال الإنشاء الطلبي فإن « النطق بالقول هو فعل ما »[3]، وهذا ما يوافقه الفعل الإنجـــازي عند أوستيـــن؛ أي أنَّ الأمر عـــندما نتوجه به إلى الـــمخاطَب، فإننا نطلب إنجاز فعل ما، والـــمقصود « بالإنجاز طبقا للمعنى الأصلي للكلمة، إنجاز الفعل في السياق »[4]

حيث أنّ لكل خطاب جواب فعلي « فجواب النداء إقبال أو إعراض وجواب التضرع والطِّـــلبه بذل أو منع، وجواب الأمر والنهي، وما شاكـــله طاعة أو معصية، وجواب السؤال عن الشيء، إيجاب أو سلب »[5].

بل إن الـــفارابي (توفي 339 هــ)، قسَّـــم الكلام الصادر عن الإنسان إلى صنفين: فـــ «القول الذي يقتضي به شيء ما فهو يقتضي به إمّا قول ما، وإمَّا فعل شيء ما، والذي يقتضي به فعل شيء ما، فمنه نداء، ومنه تضرع، وطِلبة، وإذن ومنع، ومنه حثٌّ، وأمر ونهي»[6].

---

(1) سورة البقرة، الآية 23.
(2) فان دايك – النص والسياق- ص 292.
(3) أبو النصر الفارابي – كتاب الحروف ص 162، نقلا عن مسعود صحراوي – التداولية عند العلماء العرب- ص 87.
(4) فرنسواز مينكو –المقاربة التداولية- ص 09.
(5) أبو النصر الفارابي – كتاب الحروف- ص 163 نقلا عن: مسعود صحراوي – التدوالية عند العلماء العرب- ص 88.
(6) نفسه ص 162 نقلا عن: مسعود صحراوي – التدوالية عند العلماء العرب- ص 87.

وهذا ما نجده عند سورل حيث أكّد « فكرة مفادها أن العنصر الأساسي في التواصل الإنساني ليس مقطعا داخليا في اللغة... وإنما هو عمل القول »[1].

كما ميز أوستين قبله ثلاثة مظاهر للكلام هي:

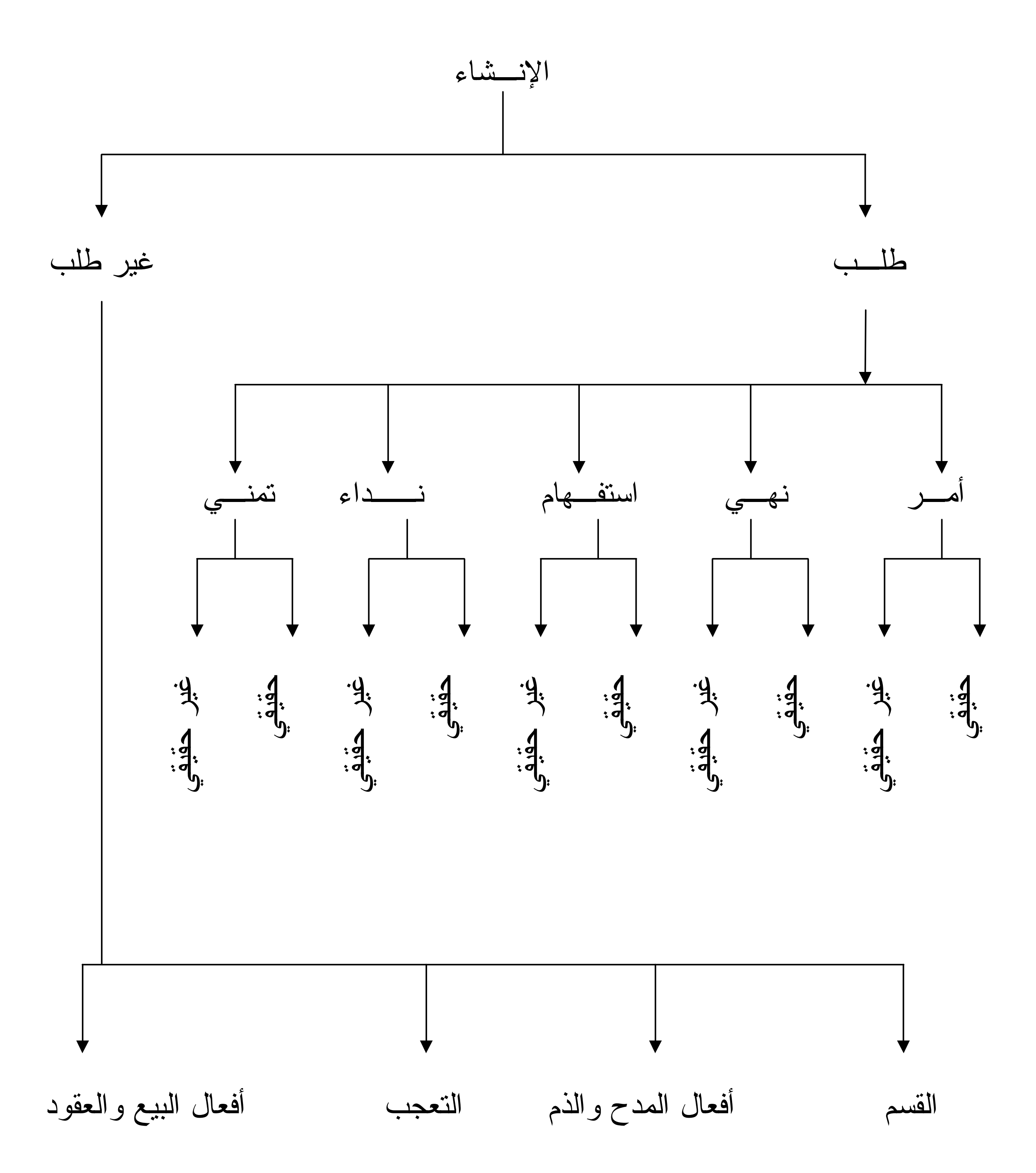
« - فعل القول: وهو إصدار أصوات تنتمي إلى معجم لغة ما منظومة وفقًا لقواعد اللغة،

- الفعل في القول: ويتم عند النطق بعبارة ما،
- الفعل بالقول: وهو فعل يحصل بفعل قول شيء ما»[2]

كأن تقول لأحد (اقرأ الكتاب)، فحروف هذه العبارة منتمية إلى المعجم العربي، وموافقة لقواعد اللغة العربية (فعل القول)، ثم ننطق بهذه العبارة (الفعل في القول)، وعن طريق تأثر السامع بالعبارة يقوم بفعل القراءة، وهنا يتحقق (الفعل بالقول).

ويمكننا توضيح تقسيمات الإنشاء في المخطط التالي:

(1) فيليب بلانشيه – التداولية من أوستين إلى غوفمان- ص 55.
(2) جيلان بلان –عندما يكون الكلام هو الفعل- ص 40.


الإنـــشاء
طلـــب
غير طلب
أمـــر
نهـــي
استفـــهام
نـــــداء
تمنـــي
حقيقي
غير حقيقي
حقيقي
غير حقيقي
حقيقي
غير حقيقي
حقيقي
غير حقيقي
حقيقي
غير حقيقي
القسم
أفعال المدح والذم
التعجب
أفعال البيع والعقود

من خلال ما سبق نجد أن الدرس التداولي الحديث قد اتفق مع تقسيم علماء العربية من خلال تقسيمهم الخبر والإنشاء بحسب قصد المتكلم والموقف الخطابي:

الخبر ← الفعل التقريري

الإنشاء ← الفعل الإنجازي.

وقد نجد في البلاغة العربية الخبر الذي يفيد الطلب – حسب قصدية المتكلم- كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝﴾[1]، فالله جلَّ اسمه يطلب هنا من عباده الالتزام بالإيمان والتقوى، ويوافق هذا الكلام الفعل الإنجازي لأوستين.

كما أن الإنشاء كذلك قد يفيد التقرير، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝﴾[2]، فهذا الاستفهام لا يفيد السؤال وإنما هو تقرير بقوّة الله وحكمه.

(1) سورة الليل، الآيات 5-6-7.
(2) سورة التين، الآية 08.

## III – البيـــان بالإشـــــارة

إنَّ التواصل الشخصي يحدث عن طريق المشافهة غالبًا، أو عن طريق البيان باللسان – كما أسلفنا القول- ذلك على اعتبار أنه يتم بين شخصين، ولكن « أحيانًا يحاول الإنسان أن يعبِّر عما في ذهنه من أفكار، فتعوزه الكلمات، ومن ثَمَّ يستعين بالإشارات التي قد تكون باليد أو بالرأس أو بالعين، وعلى هذا الأساس تنقل الإشارة التواصل من ميدان التخاطب الصامت إلى الإيماء، ويحدث الإيماء حوارًا دقيقًا قلّما يحصل فيه سوء تفاهم بين المتحاورين »[1]، لأن الصوت ليس هو الوسيلة الوحيدة للتواصل الشخصي – حتى وإن كان هو الأبرز والأكثر استعمالاً- بل « هناك وسائل كثيرة غير لفظية يستخدمها الإنسان، أو تصدر عنه بهدف نقل المعلومات أو الأفكار أو المشاعر، أو بهدف المساعدة على نقلها أو الدقّة في التعبير عنها »[2] هذا مما يبن أن الإشارة قد لا تكون منفردة في العملية التواصلية. ولكن قد تكون مساعدة للفظ واللسان من حيث أنها موضحة ومدققة.

ومن الواضح أنَّ البلاغين العرب قد أولوا الإشارة أهمية كبرى، لما تحمله من توضيح للمعاني وتبيين لها « فأما الإشارة باليد وبالرأس وبالعين والحاجب والمنكب، إذا تباعد الشخصان، وبالثوب وبالسيف، وقد يتهدد رافع السيف والسوط، فيكون ذلك زاجرًا ومانعًا رادعًا، ويكون وعيدًا أو تحذيرًا »[3]

أمَّا إذا تقارب الشخصان في المسافة التي بينهما، فـــ « في الإشارة بالطرف والـــحاجب، وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير، ومعونة حاضرة في أمـــور يسترها بعض الناس من بعض ويخفونهـــا من الجليس وغير الـــجليس، ولولا الإشـــارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص »[4]، ومن دلالات الإشارة ما قاله الشاعر في ذلك:

---

(1) محمد بوعمامة – اللغة والفكر والمعنى- ص 238.
(2) أحمد مختار عمر – أنا واللغة والمجتمع- ص 129.
(3) الجاحظ - البيان والتبيين- 77/1.
(4) نفسه 78/1.

أشارت بطرف العين خيفة أهلها ù ù إشـــارة مذعور ولـــم تتكلّم

فأيقنت أن الطرف قد قال مرحبًا ù ù وأهلاً وسهلاً بالحبيب المتيّم[(1)]

«وقال آخر:

العين تبدي الذي في نفس صاحبها ù ù من المحبَّـــة أو بغضٍ إذا كـــانا

والـــعين تنطق والأفـــواه صامتة ù ù حتَّى ترى من ضمير القلب تبيانا

ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت»[(2)]، وهذا ما يبيّن لنا بلاغة الإشارة وبلوغ المعنى بها إلى المخاطب، خاصة إذا عجز اللسان على أن يؤدي المعنى، فكثيرًا ما نسمع أحدًا يبين شيئًا ويشرح ثم يشير قائلا (عجز اللسان عن الوصف)، وحتى إن لم يعجز اللسان، فإنها تساعد اللفظ، حيث توضح موقف المتكلم، وانفعالاته وحالته النفسية، مما يساعده على الوصول إلى ذهن المتلقي، فلو افترضنا وجود شاعر يلقي قصيدة من وراء ستار، وآخر يلقيها أمام جمهور المتلقين، ويصحبها بالإشارة، فإن الثاني سيصل إلى ذهن المتلقي بشكل أسرع، وربما كان الفهم منه أكثر.

والبيان بالإشارة عند ابن وهب هو "الوحي" إذ يقول: « وأمَّا الوحي فإنها الإبانة عمَّا في النفس بغير المشافهة، على أيِّ معنًى وقعت، من إيماء وإشارة »[(3)]، ونجد المعنى ذاته في الـــقرآن الكريـــم، حيث يقول تعالـــى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١﴾[(4)] وهنا يبدو أن زكـــريًّا –عليه السلام- قد تـــواصل مع قومه عن طريـــق

(1) السابق 78/1.
(2) نفسه 79/1.
(3) ابن وهب – البرهان- ص 113.
(4) سورة مريم، الآيتان 10-11.

الإشارة بعد أن جعل الله له آية عدم كلام الناس ثلاث ليال، وربما كانت هذه الآية مصدرًا لابن وهب في تسميته الإشارة بالوحي.

أمَّا صاحب الصناعتين فقد جعل حسن الإشارة من باب البلاغة، فالبلاغة عنده « وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة »[1]

بل إن هناك من ربط بين البيان باللسان والبيان بالإشارة، على أساس أن هذا الأخير يكون مكمِّلاً وموضحًا للأوّل، وذلك من باب أن « هناك إفادات أخرى تحصل في أثناء عملية الكلام، كالإشارة والإيماءة »[2]، فالإشارة أثناء التخاطب توضح للمتلقي مدى انفعال الملقي « فالإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ وما تغني عن الخط »[3]، لكن ذلك يشترط فيه التوافق بين اللفظ والإشارة، مع حسن استخدامها بما يوافق المعاني، وبما يوافق الحالة النفسية للمتلقي فـ « حسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان الذي يكون مع الإشارة »[4]

إذن فالإشارة مؤدية لذات الوظيفة مع اللسان، وهي الوظيفة التواصلية، حيث يقول (بيبرغيرو): « تتجلى وظيفة الإشارة في إيصال الأفكار، وهذا يستلزم موضوعًا أو شيئًا نتحدث عنه »[5]، ويوافق هذا الكلام ما جاء به الجاحظ وغيره من البلاغيين في أن الإشارة مقيمة للتواصل، من خلال إيصال الأفكار من مرسل إلى مرسل إليه، بل قد تعين اللسان في ذلك.

---

(1) العسكري – الصناعتين- ص 25.
(2) محمد كريم الكوّاز – البلاغة والنقد- ص 302.
(3) الجاحظ - البيان والتبيين- 78/1.
(4) نفسه 79/1.
(5) ذهبية حاج حمّو – لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب- ص 120.

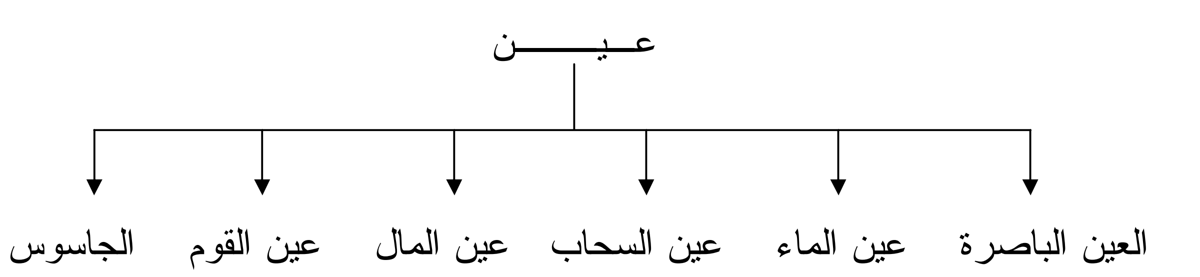
## IV السيـــاق والتواصـــل

يعتبر السياق من بين أهم العناصر المساعدة على التواصل، وإقامة العلاقة بين المتواصليْن، « ويعرف أولمان السياق اللغوي بأنه: النظم اللفظي للكلمة وموقعها من ذلك النظم »[1]، بشرط أن يتواصعا على لغة معينة، لأنّ « الكلام يفيد إلاّ بالمواضعة »[2] حتى يستطيع المتخاطبان إقامة العلاقة التواصلية بسهولة وتجاوب بينهما، وأن يكون كلاً منهما على معرفة واسعة باللغة واستعمالاتها، على حدِّ رأي العسكري، الذي يرى أنه من « تمام آلات البلاغة التوسع في معرفة العربية ووجوه الاستعمال بها، والعلم بفاخر الألفـــاظ وساقطهـــا، ومتخيرها ورديئها، ومعرفة المقامات، وما يصلح في كل واحد منها من الكلام »[3].

إنّ ما اشترطه العسكري في تمام آلة الـــبلاغة، إنما فيه خدمة للسياق مما يعين على استمرار التواصل بين المتخاطبين، لأن معرفة المتكلم باللغة ووجوه استعمالها، يعينه على تحديد الـــسياق المحدد لِلّـــفظ، أو الألـــفاظ التي سيستعملهـــا، وهذا مما يجعل الآمدي (توفي 371 هـــ) يقـــول: « إن دلالة الألـــفاظ ليست لذواتها بل هي تابعة لقصد المتكلم وإرادته »[4]، وهذا مما يبـــدي أن معرفة المتكلم باللغة هي التي تساعده على تحديد قصده وإرادته، « ولكن متى تـــؤدِّي اللفظة المفردة معنًى محددًا؟ الجواب أنها تـــؤدِّي معنًى محددًا إذا استعملت في سياق، فالسياق وحده هـــو القادر على أن يمنح اللفظة المفردة دلالتها المحددة... فالـــذي يحدد قيمـــة الكلمة المفردة هو الـــسياق الذي ترد فيه »[5]، لأنَّ طريق التواصُّـــل إلى إقامة جســـور التواصل بين الـــمتخاطبين أساسه النظر إلـــى

(1) حسين حامد الصالح – التأويل اللغوي في القرآن الكريم- ص 103.
(2) الخفاجي - سر الفصاحة- ص 34.
(3) العسكري – الصناعتين- ص 31.
(4) علي آيت أوشان – السياق والنص الشعري- ص 115.
(5) محمد كريم الكواز – النقد والبلاغة- ص 322.

المفردات ومدلولاتها حسب السياق، فقد يكون اللفظ واحد، ولكن دلالاته تختلف بحسب الجملة التي يرد فيها، « فمثلا كلمة (العين) تدل على العين الباصرة وعين الماء وعين السحاب وعين المال »[1] وعين القوم، والجاسوس وغيرها من المعاني:




وهذا مما يبدي لنا أنَّ علماء العربية قد تفطنوا لما يمكن أن يساعد به السياق لإقامة التواصل واستمراره، بل إنهم حددوا السياق حتى من حيث المعنى البلاغي للعبارة، فالاستفهام في قول المتنبي (توفي 354 هـ):

أبنت الدهر عندي كل بنت ùù فكيف وصلت أنت من الزحام؟[2]

فالاستفهام هنا لا يدل على السؤال، إنما يدل على التعجب بحسب سياق الجملة، ومنه «صحَّ أن يكون قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾* إلى آخر الآية تعجبًا وتعجيبًا... وكذلك يقال: أين مغيثك؟ للتوبيخ والتقريع والإنكار»[3]، مما يوضح بأن العبارة يفهم القصد منها حسب السياق الذي توضع فيه، « فمجموعة الجمل التي يتكون منها الكلام هي جزء من الوضعية التواصلية (السياق) وذلك من حيث الإفادات (المعلومات) التي يوحي بها، وهي متداولة بين المتخاطبين»[4]

---

(1) حسين حامد الصالح – التأويل اللغوي في القرآن الكريم- ص 106.
(2) المتنبي – الديوان- ص 311.
(3) السكاكي – المفتاح- ص 314 * الآية من سورة البقرة 28.
(4) محمد كريم الكواز - البلاغة والنقد- ص 302.

ولأهمية الـــسياق في المعنى اعتمد المفسرون على هذا العنصر لضمان التواصل بين القارئ والنص القرآني، و« تأتي علاقة السياق بالمعنى من كون العديد من الملفوظات، لا يمكن تحديد معناها بدقة إلاً بمعرفة سياقها الذي وردت فيه فعادة ما يسأل شخص عن معنى كلمة، فيضطر إلى التساؤل عن سياقها الذي وردت فيه، وفي هذا الصدد يقول بييرغيرو: « إنّ الغموض الذي يلفُّ العلامة المتعددة الدلالات يزول عندما توضع في سياقها »[1]، فإذا وضعت في سياقها اللغوي يتجلّى معناها المراد، فعلى سبيل المثال، لا نستطيع وضع معنى محدد للفظ (عين)، إلاّ إذا وضعناها في سياقها اللغوي الذي سيحدد لنا المعنى الذي يريده المتكلم كقولنا:

رأيت (عين) القوم ←——— سيد

رأيته بأمِّ (عيني) ←——— العين الباصرة .... وهكذا.

ويُوافق ذلك قولُ (فندريس) الذي يرى « أنّ للكلمات دائمًا قيمة حضورية، بمعنى أنها محدودة باللحظة التي تستعمل فيها لأن الاستعمال الوقتي يخلع على كل كلمة قيمة محدودة دون النظر إلى المعنى أو المعاني التي كانت في الماضي »[2]، فكلمة (عين) مثلاً إذا استعملناها في سياق معين، فإن المتلقي يبعد جميع التوقعات لمعنى هذه الكلمة ويستقر ذهنه على معنى واحد مرتبط بهذه اللحظة وهذا السياق.

وحسب رأيه فــ « إننا حين نقول بأن لإحدى الكلمات أكثر من معنى واحد في وقت واحد، نكون ضحايا الانخداع إلى حدٍّ ما، إذ لا يطفو الشعور من المعاني المختلفة التي تدل عليها إحدى الكلمات، إلا المعنى الذي يعينه سياق النص، أما المعاني الأخرى، فتمحي وتبدد، ولا توجد إطلاقًا »[3]

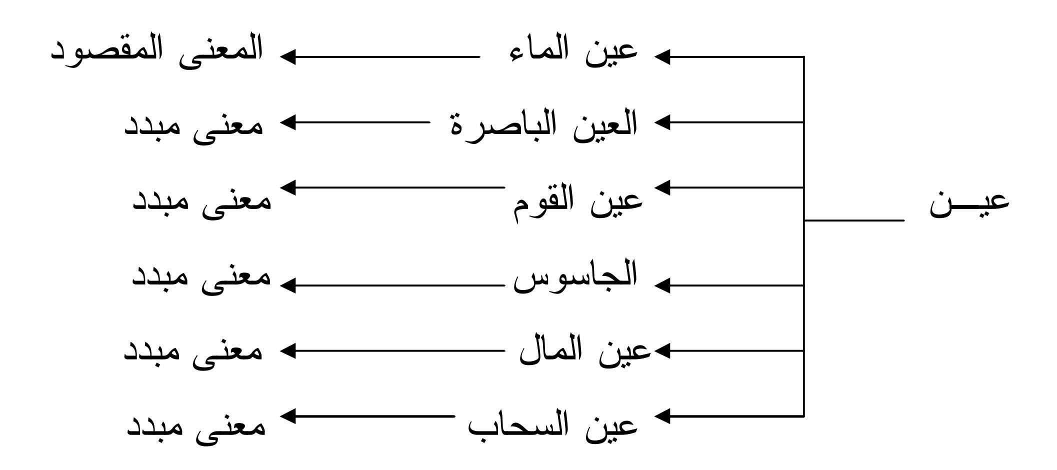
---

(1) علي آيت أوشان – النص والسياق الشعري- ص 39.

(2) حسين حامد الصالح – التأويل اللغوي في القرآن الكريم- ص 128.

(3) نفسه ص 104.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ﴾[1]




نرى حسب المثال السابق بأن المعنى الأوّل هو المقصود، أما بقيَّة المعاني فمبدّدة، لأن السياق يفرض معنى (عين الماء) المتفجرة من الحجر، وقرينة ذلك وجود لفظتي (الحجر/ مشربهم) مما جعلنا نتأكد من أن هذا هو المعنى المقصود، وهكذا في جميع الكلمات التي تستعمل في عدة معانٍ مختلفة باختلاف السياق والمقام فـــ « كلمة خدمة Service لا تثير نفس الفعل عند نادل مقهى أو بطل في التينس، وسلة السيّدة في منزلها ليست هي سلة كرة السلة، إن معنى الكلمات مرتبط بما تثيره هذه الكلمات عندنا »[2]

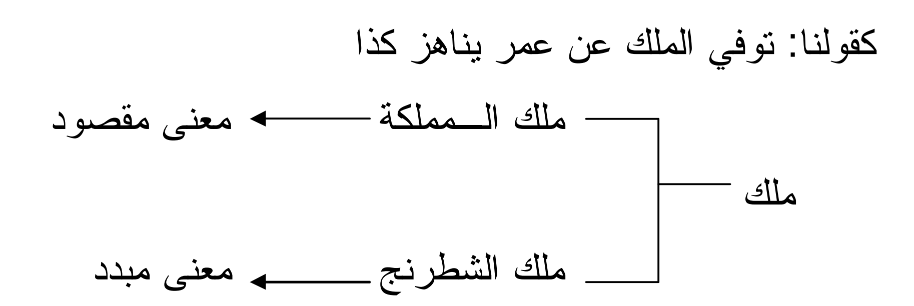
ومما يؤكد ما سبق رأي (فيرث) وأصحاب نظرية السياق بـــ « أن معنى الكلمة هو استعمالها في اللغة أو الطريقة التي تستعمل بها أو الدور الذي تؤديه، ويرى فيرث أيضا أن المعنى لا ينكشف إلاّ من خلال تسييق الوحدة اللغوية، أي وضعها في سياقات مختلفة»[3]، فلفظة (ملك) عندما نتلقاها أثناء لعبة الشطرنـــج، لا تؤدي المعنى ذاته ونحن

---

(1) سورة البقرة، الآية 60.
(2) جان كلود مارتان – ما التواصل؟ ص 26.
(3) حسين حامد الصالح – التأويل اللغوي في القرآن الكريم- ص 101.

بصدد الكلام في السياسة أو التاريخ، وإنما يتغير معنى هذه الوحدة المعجمية من خلال تسييقها؛ أي وضعها في سياق معين يحدد معناها.

كقولنا: توفي الملك عن عمر يناهز كذا




« أمَّا أصحاب نظرية النحو الـــتأليفي La grammaire combinatoire، فقد انطلقوا من افتراض منهجي يقوم على الاعتبار التالي: عدم وجود أي قيمة لأيٍّ عنصر لغوي خارج المعنى التواصلي أي الـــتركيبي، فالكـــلمة لا معنى لها في ذاتها لأنها قد تحتمل تغيرات دلالية كثيرة حسب السياق الذي ترد فيه، ونقصد بالسياق البنيات التركيبية التي ترد فيها »[1]، وذلك لأن قيمة العنصر اللغوي، ليست في اللفظ ذاته، وإنما في المعنى الذي يؤديه. ولا يمكننا الوقوف على المعنى المقصود إلاّ من خلال وجوده في سياقه.

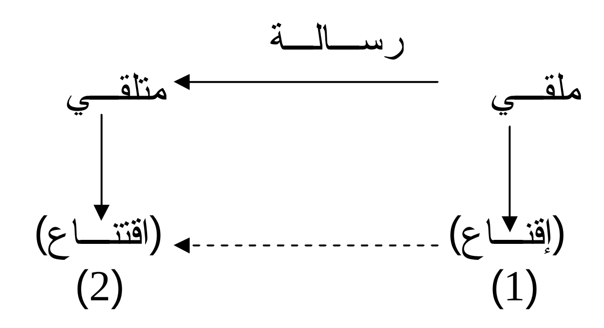
لقد تكلَّم القدامى والمحدثون عن أثر السياق في المعنى مما يجعل جسور التواصل تتم بين المتخاطبين، إذ يتبيَّن للبعض بأن للكلمات معانٍ مستقلة في حين أننا لا نستطيع تحديد معنى الكلمة الواحدة ولا فهمها بمعزل عن الكلمات الأخرى ذات الصلة بها والتي تساعدنا بذلك – وفق السياق الذي ترد فيه- على تحديد معناها المراد.

---

[1] علي آيت أوشان – السياق والنص الشعري- ص 45.

## V – الإقـــناع والتـــواصل

يعتبر الإقناع من أهم وظائف التواصل وغاياته، حتى أن البلاغة العربية جاءت من أجل « التواصل والإقناع والإمتاع »[1]، حيث جعلت الإقناع من بين الوظائف التي من أجلها وضعت البلاغة العربية، « والإقناع، هو أحد طرفي العلاقة بين رسالة هادفة إلى توجيه الفكر أو الاعتقاد، وطرفها الآخر هو الإقناع، وهذان الطرفان متلازمان وجودًا أو عدمًا، فلا وجود للاقتناع دون وجود الإقناع »[2]، لأن الاقتناع يكون من طرف المرسل إليه/ المتلقي، والإقناع يكون من طرف الأول وهو المرسل/ الملقي، فإن لم يكن الأوّل فلا وجود للثاني.




وقد عرف القرطاجني (توفي 684 هـ) الإقناع بأنه: « إنهاض الـــنفوس إلى فعل شيء أو طلبه أو اعتقاده أو التخلّي عن فعله أو طلبه أو اعتقاده »[3]، فهذا مما يوضح بأن الإقناع لا يكون من جانب واحد، وهو الجانب الإيجابي، أي القبول والاعتقاد، وإنما قد يدفع بالمتلقي إلى الجانب السلبي، وهو الرفض والتخلّي، وكلاهما يهدف إلى تغيير وجهة نظر المتلقي عن طريق إقامة الحجة وليس ذلك أظهر في قولٍ، أكـــثر من القرآن الكريم، فـــ « من وضوح الدلالة وقرع الحجّــة قول الله سبحانـــه: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾*، فهذه دلالة واضحة على أن الله تعالى قادر على إعادة الخلق، مستغنية

---

[1] محمد مفتاح – التلقي والتأويل- ص 38.
[2] سمير شريف استيتية – اللسانيات (المجال والوظيفة والمنهج) 700-701.
[3] القرطاجني – المنهاج- ص 106.
* سورة ياسين، الآيتان 78-79.

بنفسها عن الزيادة فيها لأن الإعادة ليست بأصعب في العقول من الابتداء »[1]، فالله عز وجل قد بيَّن قدرته على إعادة الخلق، من خلال، توضيحه – جلَّ وعلا- أنه صاحب الخلق الأوّل، وبذلك فقد أقام حجة قوية على قدرته إعادة الخلق من جديد، لأن القادر على الخلق حتما يقدر على الإعادة.

« وقد أفردت البلاغة فنًّا من فنونها يؤدي إلى استمالة المتلقي بحسب حالته، سمي (الاستدراج)، وهو استمالة المخاطب بما يؤثره، ويأنس إليه، أو بما يخوِّفه ويرعبه، قبل أن يفاجئه المتكلم بما يطلب منه، ويكون الاستدراج بأن يقدّم المتكلم ما يعلم أنه يؤثر في نفس المتلقي من ترغيب وترهيب، وإطماع وتزهيد، ولأن أمزجة الناس تختلف في ذلك فينبغي أن يُستمال كل شخص بما يناسبه »[2]

نرى بأن البلاغيين العرب قد ركزوا على استمالة المتلقي بطرق عدّة من أجل الإقناع، لأن « مدار البلاغة كلها على استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم، لأنه لا انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائعة ولا المعاني اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها »[3]

والإقناع لابد أن يكون بطريقة منظمة، يستجمع فيها الملقي كل ما يملك من وسائل مختلفة للتأثير في آراء الآخرين وأفكارهم، بحيث يجعلهم يقبلون ويوافقون على وجهة النظر في موضوع معين، ومن وسائل الإقناع التي اعتمدها البلاغيـــون "التمثيل" الذي به يَفْخُـــمُ المعنى ويكمل ويشرف، و« أوّل ذلك وأظهره أنَّ أُنْسَ الـــنفوس موقوف على أن تخرجها من خفِّي إلى جلي »[4]، والأنس هنا مقصود به ارتيـــاح نفس المتلقي إلى ما كان

من الملقي لذا كان « الإقناع مباشرًا وغير مباشر فأمّا المباشر فيخاطب الفرد أو الجمهور

(1) العسكري – الصناعتين- ص 27.
(2) محمد كريم الكواز – البلاغة والنقد- ص 297.
(3) ابن الأثير – المثال السائر في أدب الكاتب والشاعر- ص250.
(4) الجرجاني – الأسرار- ص 99.

بشكل تلقائـــي، دون موارية، وأما غير المباشر فيكـــون في العادة متواريًّـــا، ولكنه يدفع المتلقي إلى استنتاج الأمورْ بنفسه، واتخاذ القرار من تلقاء نفسه فيشعر بالرضا والراحة النفسية»[1]، وقد يكون النوع الثاني (غير المباشر) عن طريق التمثيل المذكور آنفا فيؤثر الملقي في المتلقي، ويصل هذا الأخير إلى الراحة والرّضا بطريقة غير مباشرة، وإنما عن طريق إعمال فكره وتدبّره في هذا التمثيل، ومثّـــل عبد القاهر لذلك بالمقارنة بين قولك: « إن الذي يعظ ولا يتعظ يضرٌّ بنفسه من حيث ينفع غيره – وتقتصر عليه- وبين أن نذكر المثل فيه على ما جاء في الخبر من أنَّ النبي ﷺ قال: {مثل الذي يعلّم الخير ولا يعمل به مثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه}»[2]، وهنا يكون الكلام أوضح، وأكثر إقناعا للمتلقي. بل يضيف مقارنة « قولك للرجل وأنت تعظه: إنك لا تجزي على السيئة حسنة ولا تغرّ نفسك، وتُمسك، وبين أن تقول في أثره: إنك لا تجني من الشوك العنب، وإنَّما تحصد ما تزرع »[3]، فإن هذا المثل الذي تقوله للمخاطب هو أكثر وقعًا في نفسه، وأبقى أثرًا، لأنك قد أقمت عليه الحجة بما يوافق سلوكه من الأمثال وبذلك يكون اقتناعه بكلامك أكثر.

ومن هنا « تتولد عن المتلقي الوظيفة الإفهامية، وقد جعلت نظرية الأفعال الكلامية غرض قسم من الأفعال، أن يحاول المتكلم إقناع المتلقي بفعل شيء ما وأسمتها التوجيهات (Directive)، وفيها يكون اتجاه المطابقة من الألفاظ إلى العالم، ويقوم محتوى القضية على إنجاز المتلقي للفعل »[4]، وهذا ما سبق إليه الجرجاني في تطابق الـــتمثيل بالواقع، بين ما أراد الملقي إيـــصاله للمتلقي وإقناعه به بطريقة غير مباشرة، أي عن طريق التمثيل، « فحين التكلم تتعين مراعاة فن القول لتصل إلى قلب المتلقي وعقله، وهي برأي

(1) راشد علي عيسى – مهارات الاتصال- ص 42.
(2) الجرجاني – الأسرار- ص 98.
(3) نفسه ص 98.
(4) محمد كريم الكوّاز – البلاغة والنقد- ص 297.

لوسبرج Lausberg نظام بنية من الأشكال التصوريَّة اللغويَّة يصلح لإحداث التأثير، فهي تداولية في صميمها إذ يمكن الاتصال بين المتكلم والسامع»[1]، وحسب رأي كل من هوراد مارتين Howarad Martin وكينيث أندرسين Kenneth Andersen « أنَّ كلَّ اتصال هدفه الإقناع، وذلك أنه يبحث عن تحصيل ردٍّ فعل على أفكار القائم بالاتصال »[2]

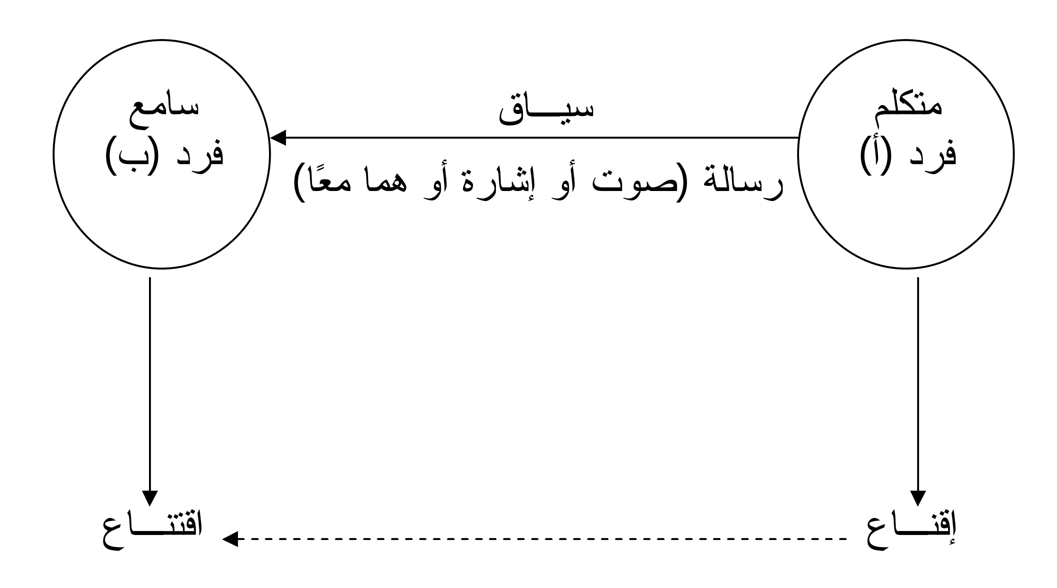
ويرى ابن وهب بأن إقامة الحجة قد تكون عن طريق الجدل والمجادلة « فهما قول يقصد بهما إقامة الحجة فيما اختلف فيه اعتقاد المتجادلين »[3]، وقد قدم الجاحظ مثالاً على ذلك، في إيَّاس بن معاوية، إذ « دخل الشام وهو غلام، فتقدم خصمًا له، وكان الخصم شيخًا كبيرًا، إلى بعض قضاة عبد الملك بن مروان، فقال له القاضي: أتقدم شيخًا كبيرًا؟ قال: الحق أكبر منه، قال: اسكت، قال: فمن ينطق بحجتي؟ قال: لا أظنُّك تقول حقًّا حتى تقوم، قال: لا إله إلاَّ الله، أحقًا هذا أم باطلاً؟ فقام القاضي، فدخل على عبد الملك من ساعته فخبّره بالخبر، فقال عبد الملك: اقض حاجته الساعة وأخرجه من الشام، لا يفسد عليَّ الناس »[4]

وقد بين صاحب البرهان أن الجدل والمجادلة، قسمان، أحدهما محمود والآخر مذموم، أما المحمود فالذي يقصد به الحق، وأما المذموم ما كان من أجل الغلبة، والتفاخر، وإظهار الذات رياءً[5]

وقد فسّر الطاهر بن عاشور قوله تعالى:﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ﴾[6] بقوله: « والمجادلة مفاعلة من الجدل، وهو القدرة على الخصام، والحجة فيه، وهي منازعة بالقول لإقناع الغير »[7]

(1) عيسى عودة برهومة – تمثيلات اللغة في الخطاب السياسي- ص 128.
(2) محمد العبد – النص الحجاجي العربي (دراسة في وسائل الإقناع)- ص 45.
(3) ابن وهب – البرهان- ص 176.
(4) الجاحظ - البيان والتبيين- ج101/1.
(5) ينظر ابن وهب – البرهان- ص 177.
(6) سورة النساء، الآية 107.
(7) عبد الله صولة – الحجاج في القرآن وأهم خصائصه الأسلوبية- ص 11.

ومن خلال ما سبق، نتوصل إلى أن البلاغيين العرب قد ركزوا في التواصل الشخصي حتى يستمرَّ ويقوم على أسس صحيحة، لابد أن يتوفر فيه السياق بين المتكلم والسامع إضافة إلى توفر قصدية المتكلم في إقناع السامع.



**توطـــئة:**

إنّ للغة عدة وظائف، ومن أهمها الوظيفة التواصلية، التي من شأنها أن تحافظ على حياة اللغة، لأن اللغة تعيش بالتداول، وبغيره لا حياة لها، ولا تكون اللغة لغة، إلاَّ أذا عاشت بين أحضان المجتمع، وهذا ما ذهب إليه إميل دوركايم بقوله: « إن حدود اللغات تميل إلى الاقتران بحدود الزمر الاجتماعية groupes sociaux التي تدعى بالأمم »[1]

ومنه فلا تعيش أيُّ لغة كانت إلاَّ بين زمرة اجتماعية ما، مما يؤكد بأن اللغة ظاهرة اجتماعية، فالإنسان يتواصل مع أفراد المجتمع الذي يعيش فيه، ويختلط بهم في أوقات وأماكن مختلفة.

ولقد تعرفنا في الفصل السابق على التواصل الشخصي، الذي يحدث بين شخصين، بشرط أن يتعارفا على شفرة محددة بينهما، وإذا توسَّعَ هذا الشكل من التواصل، أصبح تواصلاً اجتماعيًا، يدور بين أفراد المجتمع ككل.

---

[1] لويس جان كالفي – علم الاجتماع اللغوي- ص 11.

## I - مفهوم التواصل الاجتماعي وعناصره

### أ/ مفهوم التواصل الاجتماعي:

إنّ الإنسان يقيم تواصلاً ذاتيا بينه وبين نفسه، كما يقيم ذلك مع شخص آخر، فينتقل من التواصل الذاتي إلى التواصل الشخصي، وإذا كان بين جماعة أصبح اجتماعيًّا، ذلك باعتبار أن اللغة تواضع اجتماعي، حيث « يوجد على الأقل في كل موقف تواصلي شخصان، أحدهما فاعل حقيقي، والآخر فاعل على جهة الإمكان، أي المتكلم والمخاطب على التوالي، وكلاهما ينتميان على الأقل إلى جماعة لسانية، أي طائفة من الأشخاص لها نفس اللغة وترابط ضروب الاتفاق (...) للقيام بالفعل المشترك الإنجاز »[(1)]، فيقال مثلاً في لغة العرب أنّ السيف القاطع حسام، أي تواضعوا على أن أطلقوا عليه هذا الاسم، وحدّدوا له هذه الصفة[(2)]، وهذا هو ذات المفهوم الذي جاء به ابن جني عند تعريفه اللغة على أساس أنّ كل قوم يعبرون عن حاجتهم بلغة تواضعوا عليها، لذا نجد العرب تقول عن شيء ما « في لغة بني تميم كذا، وفي لغة أهل الحجاز كذا... والمعنى أنَّ بني تميم تواضعوا على ذلك، ولم يتواضع أهل الحجاز عليه »[(3)]، لذا تعددت اللغات عند العرب، حسب القوم، كلغة هذيل، ولغة حمير، ولغة أهل الحجاز، وغيرها من اللغات المشهورة عند العرب.

إذن فالمواضعة أساس التواصل بين أفراد المجتمع « ونعني بالاتصال أو التفاعل الاجتماعي هنا، جميع أشكال الاحتكاك والتواصل التي تفرضها العلاقات الاجتماعية الإنسانية، وتدعـو الأغراض الحياتية أو المعيشية للفـرد والجماعة، وتستدعي التخاطب واستخـدام اللغة في إطارها اللفظي أو الرمزي العام »[(4)]، فكـل احتكاك اجتماعـي في أي مجال كان – سـواء في مجال الحياة العامة، أو التعليم أو غيرهمـا... يعتبر تواصلاً

---

(1) فان دايك – النص والسياق- ص 258.
(2) ينظر: الخفاجي - سر الفصاحة- ص 48.
(3) نفسه ص 48.
(4) أحمد محمد معتوق – الحصيلة اللغوي- ص 71.

اجتماعيًّا بين أفراد هذه الجماعة لأنَّ « معنى التواصل... أكثر شمولية من معناه المعتاد، المنحصر في المنطوق والمكتوب والشبه لغوي، أي تلك العناصر التي تمثل أشكال التبادل الأساسية بين الأفراد، إننا نوسع من دائرته لكي يشمل أيضًا أفعال وسلوكات الفاعلين الاجتماعيين »[1]، لأن السلوك إذا تعارف عليه المجتمع وأقرَّه، يصبح وسيلة من وسائل التواصل الاجتماعي، كما كان مع النبي ﷺ وأصحابه، إن سكت ﷺ على شيء ما أو سلوك ما، وأقرّه، قالوا سنة تقريرية، فسلوك الصمت عند الرسول ﷺ شيء متعارف عليه، والعرب تقول: (السكوت علامة الرضا).

ويرى جاكبسون أنَّ « المهمة الطبيعية للسانيات، هي إثارة الأهمية الأساسية لمفهوم التواصل في العلوم الاجتماعية، وحسب صياغة سابير، إن... كل سلوك اجتماعي يتضمن تواصلاً، سواءً كان بمعنًى صريح أو ضمني، فالمجتمع لا يبدو بوصفه بنية ثابتة، بل بوصفه شبكة بالغة التعقيد، من أنواع الفهم الجزئية الكاملة بين أعضاء الوحدات التنظيمية، ذات التعقيد. ويعاد التأكيد والتشديد على هذه الشبكة بصورة خلاّقة عن طريق أفعال معينة ذات أبعاد تواصلية »[2]

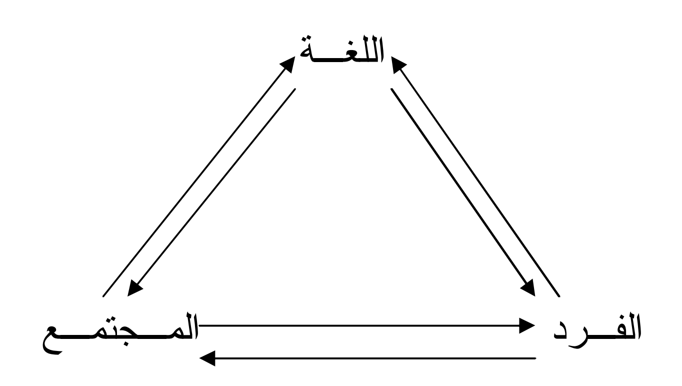
من خلال قول جاكبسون، يتبيّن أن التواصل الاجتماعي، ليس تواصلاً لفظيًّا فقط، بل قد يكون سلوكًا اجتماعيًا ذا طبيعة تواصلية، والمقصود من ذلك أن يكون السلوك متعارفًا على معناه، بحيث يفهم المتلقي ما يريده الملقي بحسب ما تواضع عليه المجتمع تجاه هذا السلوك، كأن تردَّ فتاة على من تقدّم لخطبتها بالصمت، فالصمت سلوك معروف بدلالته على القبول، لأن « الاتصال ليس وظيفة بيولوجية يؤديها الإنسان كما يؤدِّي وظائفه الحيوية الأخرى، لكنه يكتسبه من المجتمع »[3]، كما اكتسب مجموعة من السلوكات المتواضع عليها، حتى يقيم تواصلاً بينه وبين أفراد المجتمع.

(1) أليكس موتشيلي، جان أنطوان كوريلان، فاليري فيرنانديز – المعنى والتنسيق والسيرورات- ص 51.
(2) رومان جاكبسون – الاتجاهات الأساسية في علم اللغة- ص 59-60.
(3) عبده الراجحي – اللغة وعلوم المجتمع- ص 34.

**ب/ عناصره:**

يقوم التواصل الاجتماعي على ذات العناصر التي يقوم عليها التواصل الشخصي، والأهم فيها ثلاثة (الملقي/ المتلقي/ الرسالة)، يضاف إلى ذلك المجتمع، حيث « تقوم اللسانيات التواصلية على منظومة ثلاثية الأقطاب، أوّلها المرسل باعتباره صاحب المبادأة في التواصل، وثانيها المستقبل باعتباره هدفًا مباشرًا للرسالة، وثالثها المجتمع باعتباره مصدر العلاقة بين أطراف التواصل، وباعتباره كذلك مصدر النظام الذي تبنى على أساسه هذه العملية »[1]

والمجتمع هو المجال العام الذي يقوم فيه التواصل، لأنه مصدر العلاقة بين أطرافه (الملقي/ المتلقي)، كما أن له علاقة مباشرة مع الفرد واللغة أيضًا، « فبين الفرد والجماعة علاقة ثنائية الاتجاه، وإن كان تأثير لغة الجماعة في الفرد أقوى من تأثيره في لغة جماعته... باعتبار انتماء الفرد إلى النظام اللغوي للجماعة »[2]، ومعنى ذلك أن التأثير متبادل بين الفرد والجماعة، و إذا أردنا تجسيد هذه العلاقة نجدها كالمثلث الذي تتعالق أطرافه، كما يوضحه الشكل التالي:




العلاقة بين لغة الفرد والجماعة[3]

(1) سمير شريف استيتية – اللسانيات التواصلية والمجتمع- ص 07.
(2) سمير شريف استيتية – اللسانيات (المجال-الوظيفة-المنهج)- ص 679.
(3) نفسه ص 679.

ومن هنا يظهر التكامل بين الفرد والمجتمع في التواصل، إلاّ أن لغة الجماعة تفرض هيمنتها على لغة الفرد، سواءً في لغته المنطوقة، أو حتى في سلوكاته، وتصرفاته، فالفرد في لغته يعبِّر عن لغة المجتمع الذي ينتمي إليه، « وقد ذهب سوسير إلى أنَّ النظام اللغوي ذو هيمنة على لغة كل فرد من أفراد الجماعة التي تنتمي إلى ذلك النظام، فقد جعل آداء الأفراد الذي سمّاه parole منبثقًا عن النظام العام الذي سمّاه langage »[1]، والفرد يتماشى حتمًا مع لغة مجتمعه حتى يستطيع التواصل معهم ويحدث التفاهم بينهم.

وتعتبر اللغة وسيلة للتبليغ والتواصل، فالله عز وجلَّ، أرسل رسله كُلٌّ بلسان قومه ليبلّغهم، ويبيِّن لهم، وتحصل بينهم المفاهمة[2]، وبذلك يتحقق التواصل مع الآخرين، باعتبار اللغة وسيلة « تعبِّر عمَّا في الخاطر، ونقل من نطاق الكامن المخزون المقدّر، إلى نطاق المختار المتحقق المنجز، من أجل التواصل مع الناس بحسب ما تقتضيه وقائع الحياة الاجتماعية »[3]

هذا مما يبين ما للغة من دور كبير في ربط أواصر المجتمع الواحد، وتوحّد أفراده لأن ذلك يسمح لهم بربط علاقات التواصل فيما بينهم، فــ « العبارات المختلفة المستخدمة للتحيَّة، وتلك المستخدمة للتأدب عند مخاطبة الغير لها وظيفة اجتماعية أخرى، فهي في كثير من الحالات تدل على الطبقة الاجتماعية أو المركز الاجتماعي الذي يشغله كل من المتكلم والمخاطب على السواء، كما تدل على العلاقة الاجتماعية بينهما »[4]، وهذا يدخل في إطار إستراتيجيات الخطاب، فكل إستراتيجية لها مسوّغات استعمال محددة، فمسوّغات الإستراتيجية التوجيهية، غير مسوغات الإستراتيجية التلميحية، ومسوغات التلميحية غير مسوغات التضامنية، وهكذا... كما يدل سؤال أحدهم لآخر عن حال بيته وأهله أنه قريب الصلة منه.

---

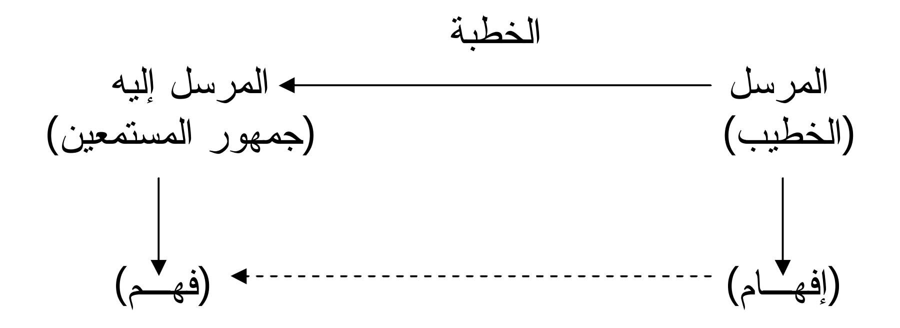
(1) السابق ص 80.
(2) ينظر بشير ابرير – دلائل اكتساب اللغة في التراث اللساني العربي- ص 99.
(3) نفسه ص 100.
(4) نايف خرما – أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة- ص 172.

## II- الــخطابــة

لقد ركز البلاغيون العرب في التواصل الاجتماعي على الخطابة باعتبارها مجسدة له، وباعتبار اللغة التي يجب أن تكون مشتركة بين الخطيب والمستمعين وتقوم الخطابة على عنصرين أساسيين هما: المرسل/ الخطيب، والمرسل إليه/ جمهور المستمعين، ولقد اشتغل البلاغيون القدامى على الخطبة كثيرًا، خاصة الجاحظ الذي خصص لها فصولاً في كتابه البيان والتبيين، مبينًا المضامين المطروقة، وصفات الخطيب، من قوة وجهارة صوت وغيرها، كما ركز على المخاطبين كذلك بحسب أفهامهم وطبقاتهم السياسية والاجتماعية، لذا كان مدار الخطابة على الإفهام والإقناع.

### أ/ الإفهام:

إن غاية الخطيب أوّلاً أن يصل موضوعه إلى ذهن المتلقي، فيقع الفهم، فمدار الخطابة على الفهم والإفهام، كما أننا نجد الخطباء قد ركزوا كثيرًا على المقدمة الخطابية لشدِّ انتباه جمهورهم. ويمكن توضيح ذلك في المخطط التالي:




وفي هذه الحال لابد على الخطيب أن يراعي حال المرسل إليه ومنزلته فــ « مدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم »[1]، أي حسب مكانتهم الاجتماعية، وحسب معرفتهم باللغة، لأن ذلك من شأنه أن يعيق إفهام المتلقي، وتحقيق التواصل.

---

(1) الجاحظ –البيان والتبيين- 93/1.

ومما تتكره العرب « أن تُكلم الحاضرةُ والمولّدون من العرب بما لا يعرفون، وبما هم إلى تفسيره محتاجون، وأن تكلّم السخفاء، بما تكلّم به الخاصّة الأدباء، وإنما مثل من يكلم إنسانًا بما لا يفهمه وبما يحتاج إلى تفسيره، كمثل من كلّم عربيًّا بالفارسية، لأن الكلام إنَّما وُضع ليعرف به السامع مراد القائل »[1]

ومن هنا يبدو أن العرب قد ركزوا على حال المتلقي أكثر من الملقي، وإن كانوا قد ركزوا على هذا الأخير في بعض الجوانب، حتى يستطيع الوصول إلى إفهام المخاطب، ومن ذلك ما ذكره الجاحظ، أنَّ عمرو بن عبيد المعتزلي سئل عن معنى البلاغة فقال: « إنَّك إن أوتيت تقرير حجة الله في عقول المكلّفين، وتخفيف المؤونة عن المستمعين، وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين بالألفاظ الحسنة في الآذان، المقبولة عند الأذهان، رغبة في سرعة استجابتهم، ونفي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة، قد أوتيت فصل الخطاب، واستوجبت على الله جزيل الثواب »[2]، وذلك حتى يوصف المتكلم بالبلاغة من خلال وصوله إلى أذهان مستمعيه فيفهمهم مراده.

ومما اشترطوه في الملقي أن يكون « عارفًا بمواقع القول وأوقاته واحتمال المخاطبين له فلا يستعمل الإيجاز في مواضع الإطالة فيقصّر عن بلوغ الإرادة، ولا الإطالة في مواضع الإيجاز فيتجاوز عن مقدار الحاجة إلى الإضجارْ والملالة »[3] حتى يستطيع الوصول إلى غايته.

وقد فصَّل العرب في أمر الإطناب والإيجاز فليس كل إيجاز محبب، ولا كل إطالة مردودة، « وإنما تحسن الإطالة وبسط الكلام... في تفسير الجمل وتكرير الوعظ، وإفهام العامة، ويليق ذلك بالأئمة والرؤساء، ومن يُقتَدى به ويؤخذ عنه »[4]،

(1) ابن وهب – البرهان- ص 163.
(2) الجاحظ - البيان والتبيين- 114/1.
(3) ابن وهب – البرهان- 153.
(4) نفسه ص 161.

وهذه كلها محاولات للإفهام، من خلال تفسير جملة بأخرى، أو تكرير الوعظ مرّات من أجل التأكيد، و إن كان ذلك سيجعل الخطاب يطول، لأن الإطالة ليست كلها عيب، وإنما عيبها أن تكون دون فائدة ترجى، أما إذا كانت فائدتها ملموسة فلا حرج في ذلك، حتى أنَّ ابن وهب فصّل في أمر الإطالة والإيجاز بحسب المخاطبين، فجعل الإطالة أمرًا محببا إذا كانت « في مخاطبة العوام، ومن ليس من ذوي الأفهام، ومن لا يكتفي من القول بيسيره، ولا يتفتَّق ذهنه إلاَّ بتكريره، وإيضاح تفسيره »[1]، ذلك لأن العوام فهمهم محدود لا يستطيعون فهم ما يخاطبون به، ولا غاية مخاطبهم إلاَّ بعد تفسير وتكرير.

بل إن ابن المقفع لم يعب الإطالة في بعض المواطن والمواقف، فقال: « فأما الخطب بين السمَّاطين، وفي إصلاح ذات البين، فالإكثار في غير خطل، والإطالة في غير إملال »[2]، فكان ابن المقفع يجيز إطالة الخطبة في هذه المواضع، ويردُّها في أخرى.

أمَّا الإيجاز فله مواضعه أيضًا، وحسب ابن وهب « ينبغي أن يستعمل في مخاطبة الخاصة من ذوي الأفهام الثاقبة، الذين يجتزئون بيسير القول عن كثيره، وبمجمله عن تفسيره »[3]، لأن الخاصّة من ذوي الأفهام سريعوا الفهم يتوصلون إلى المعنى بأيسر القول، لذلك قيل: « ربَّ قليل يغني عن الكثير... بل رُبَّ كلمة تغني عن خطبة وتنوب عن رسالة »[4]، غير أنه يشترط ألاَّ يكون مجحفًا للمعنى، معيبًا له، فالإيجاز أيضًا « ليس بمحمود في كل موضع، ولا بمختار في كل كتاب، بل لكل مقال مقام، ولو كان الإيجاز محمودًا في كل الأحوال لجرّده الله في القرآن، ولم يفعل الله ذلك، ولكنه أطال تارة للتوكيد، وحذف تارة للإيجاز، وكرّر تارة للإفهام »[5]، وهذا ما

(1) السابق ص 154.
(2) الجاحظ - البيان والتبيين- 116/1.
(3) ابن وهب – البرهان- ص 154.
(4) الجاحظ - البيان والتبيين- 07/2.
(5) ابن قتيبة الدينوري – أدب الكاتب- ص 13.

يقف عنده القارئ للقرآن الكريم الذي جمع بين الإطالة والإيجاز كما في الأمثلة الآتية:

- قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1] فهذه الآية معناها واسع كثير، لكن اللفظ المستعمل فيه أقلّ منه، رغم ذلك فهو مؤدٍّ للمعنى على أكمل وجه.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۝٧٩﴾[2]، والمقصود هنا كل سفينة سليمة صالحة صحيحة، بدليل ما جاء بعد ذلك على لسان الخضر بقوله تعالى: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾[3].

- أما الإطالة من أجل التوكيد، فمثالها قوله تعالى: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ۝٢٢٢ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ...﴾[4]، فإن قوله جلّ وعلا: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ شرح وتوكيد لقوله: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ﴾.

- أما الإطالة بالتكرير، فمنها قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾[5]

وليس الإيجاز أو الإطناب ممدوحين في ذاتهما، وإنما بحسب الحاجة إليهما، فـ « القول القصد أن الإيجاز والإطناب يحتاج إليهما في جميع الكلام، وكل موضع منه، ولكلِّ واحدٍ منهما موضع، فالحاجة إلى الإيجاز في موضع كالحاجة إلى الإطناب في مكانه، فمن أزال التدبير في ذلك عن جهته، واستعمل الإطناب موضع الإيجاز،

---

(1) سورة البقرة، الآية: 179.
(2) سورة الكهف، الآية 79.
(3) سورة الكهف، الآية 79.
(4) سورة البقرة، الآيتان: 222-223.
(5) سورة التكاثر، الآيتان: 3-4.

واستعمل الإيجاز موضع الإطناب أخطأ »[1]، فلكل منهما موضع حسب الحاجة إليه.

وتجدر الإشارة إلى أنه على الخطيب أن يتعامل مع جمهور السامعين بحسب انتباههم إليه، فإن هو رأى القوم مقبلين اهتمامًا وإنصاتًــا لقوله زادهم – إن أراد- بقــدر ما يحتملون، وإن تبيَّن له إعراضهم عنه، وتثاقلهم في الاستماع إليه خفّف عنهم، و أجاز قوله[2]، وذلك حتى يستطيع الخطيب التعرّف ما إذا وصل الفهم للمخاطبين أم لا، فنظراتهم وتغيرات قسمات وجوههم وهم ينظرون إليه معبّرة عن ذلك، بل تعبِّر حتى عن استساغتهم للموضوع أم نفورهم منه.

(1) أبو هلال العسكري – الصناعتين- ص 190.
(2) ينظر ابن وهب – البرهان- ص 153.

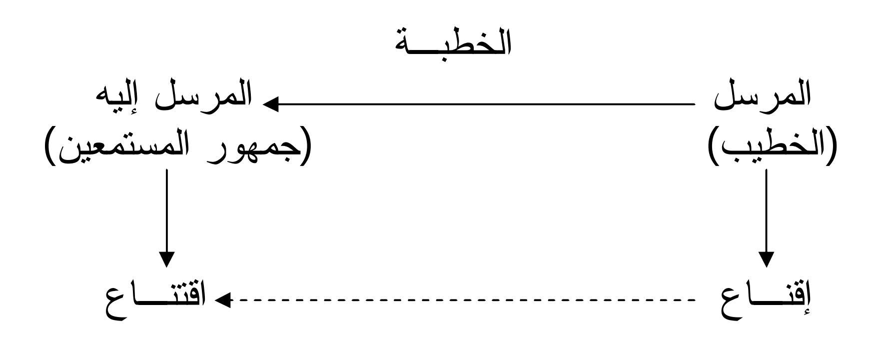
**ب/ الإقناع:**

إنَّ الـــبلاغة العربية – كما أسلفنا الذكر - تقوم على الإفهام والإقناع، وكنَّـــا قد رأينا أنَّ الإفهام هو وصول المرسل إلى ذهن المرسل إليه، فغاية الـــملقي في ذلك أن يقنع المتلقي، لأن « الإقنــــاع هو قوام المعاني الخطابية »[1]، وحتى يكون الخطيب مقنعًـــا للـــمستمع، لابد أن يرد كلامـــه « على جهة الاحتجاج والاستـــدلال »[2]، لأن الخطابة أساسًا تقـــوم على تقويـــة ظن المتلقي، لا على يقيـــن، إلاّ إذا عدل الخطيب عن الإقنـــاع إلى الـــتصديق[3]

و كما هو معروف أن الأقاويـــل تنقسم إلى صادقة وكاذبـــة، كما هو الـــحال في الخطابـــة أيضًا – على حـــد رأي الـــقرطاجني- غير أن الـــخطيب يستطيع أن يقنع مستمعيـــه عن طريق الـــتمويه والاستدراج، وفي ذلك يقول حازم: « وإنما يصيـــر القول الـــكاذب مقنعًا وموهمًا أنه حق بتمويهات واستدراجـــات ترجع إلى القول أو المقول له، وتلك التمويهات والاستدراجـــات، قد توجد في كثير من الـــناس بالطبع والحنكة الحاصلة باعتيـــاد المخاطبات التي يحتاج فيها إلى تقوية الـــظنون في شيء ما أنه على غير ما هو عليه، بكثـــرة سماع المخاطبات في ذلك والتدرب في احتذائها »[4].

وهنا يكون لِـــقدرة الخطيب وممارسته وقع في عملية الإقنـــاع، بتهيئته هيـــأة من يسمع قـــوله أو باستمالة المخاطب إليه، وبذلك يكون المخاطب أيضًا مهيّـــأً لقبول القول والاقتنـــاع به، لأن العملية الإقناعيـــة مبنية على الإقناع والاقتناع، ولا يمكن أن تقـــوم على جـــانب واحدٍ منهمـــا.

[1] القرطاجني – المنهاج- ص 361.
[2] نفسه ص 62.
[3] ينظر: نفسه ص 62.
[4] نفسه ص 63.




ويعتمد الخطيب عادة في إقناع مستمعيه على مقدمات تفضي به إلى نتائج، « لأن القياس قول مؤلف من مقدمات وقضايا، إذا كانت مسلّمة، ورُتبت الترتيب الذي يجب في القياس الصحيح، لزم عن ذلك القول المرتب لذاته قول آخر يُسمى نتيجة »[1]، وإذا صحت هذه المقدمات صحّت النتيجة، وبذلك يكون القياس صحيحًا.

| | |
|---|---|
| كل إنسان فان | مقدمة كبـــرى |
| زيـــد إنســـان | مقدمة صغرى |
| زيـــد فـــان | نـــتيجـــة |

وقد يبنى الــقياس على مقدمات موهمة للسامع حتى يطوى في ذلك محلَّ الكذب، وفي هذا يقول حـــازم: « والـــتمويهات تكون بطي محل الــكذب من القياس عن الـــسامع أو باغتراره إيّـــاه، ببناء القياس على مقدمات توهم أنَّـــها صادقة لاشتباهها بما يكون صادقًـــا، أو بترتيبه على وضع يـــوهم أنّـــه صحيح، لاشتباهه بالصحيح، أو بوجود الأمرين معًـــا في الــقياس، أعني أن يقع فيه خلل من جهتي المادة والـــترتيب معًا، أو بإلهـــاء السامع عن تفقد مـــوضع الــكذب »[2]،من أجْل إقناع سامعيه.

(1) السابق ص 66.
(2) نفسه ص 64.

وبذلك يكون القياس خاطئًا موهمًا لسامعه بالصحّة.

| | |
|---|---|
| كل شهيد في الجنة | مقدمة كبـــرى |
| لا طالـــب شهيــد | مقدمة صغرى |
| لا طالب في الجنة | نـــتيجـــة |

وأورد الجاحظ عددًا من صفات الخطيب، حتى يكون مقنعًا بليغًا، ومن ذلك ما ترجم من صحيفة هندية جاء فيها: « أوّل البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب، رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخير اللفظ، لا يكلّم سيد الأمَّة بكلام الأمّة، ولا الملوك بكلام السوقة »[1]

ففي النص السابق يتضح لنا أن الغاية القصوى عند الجاحظ هي الخطاب الاقناعي وتقدّم فيه الغاية (الإقناع) عن الوسيلة (اللغة)، فالغاية هي التي تحدّد طبيعة الوسيلة بحسب المقامات والمخاطبين.

كما ركز الجاحظ في كتابه البيان والتبيين على عدد من صفات الخطيب الجسدية، والملكات الذهنية، ثمَّ عرّج على هيئته من طول وقصر، وحسن ودمامة، وكل ما له دور في إقناع المستمع، وجذبه إليه قبل الإقناع باللغة، ومن ذلك ما أورده من قول سهل بن هارون : «لو أن رجلين خطبا أو تحدثا، أو احتجّا ووصفا، وكان أحدهما جميلاً جليلا بهيًّا، ولبَّاسًا نبيلاً، وذا حسبٍ شريفًا، وكان الآخر قليلاً قميئًا، وبادَّ الهيئة دميمًا، وخامل الذّكر مجهولاً، ثم كان كلامهما في مقدار واحدٍ من البلاغة وفي وزن واحد من الصوَاب، لتصدّع عنهما الجمع، وعامتهم تقضي للقليل الدّميم على النبيل الجسيم، وللبادّ الهيئة على ذي الهيئة، ولشغلهم التعجب منه عن مساواة صاحبه، ولصار منه سببًا للعجب به، ولصار الإكثار في شأنه علّة للإكثار في مدحه، لأن النفوس كانت له أحقر، ومن بيانه أيأس»[2]

---

[1] الجاحظ - البيان والتبيين- 92/1.
[2] نفسه: 89/1.

هذا مما يبين ما لهيئة الخطيب من دور في تهيئة نفس السامع للاقتناع بما سيأتي في قوله، فلولا سماع الناس لهذين الرجلين اللذين قارن بينهما الجاحظ، لكان الاقتناع من نصيب النبيل الجسيم، بدليل أن جمهور السامعين عندما رأوا الدميم القميئ يئسوا من بيانه ولم يتوقعوا فصاحة لسانه، وإنما أعجبوا به عندما قارنوه في الهيئة بصاحبه، ثم كان كلامهما في مقدار واحد من البلاغة. فشخصيّة المتكلم لها دور مهم في نظر المخاطبين، « ونعني بشخصية المتكلّـــم أمام الجماهير، صغيرة أم كبيرة، أن يكون مؤهـــلاً للحديث بحيث يلقى قبولاً وترحيبًا من الحاضرين، ولا يكون ذلك إلاّ إذا كانت لديه مجموعة من الإمكانات التي تعينه على النجاح في آداء رسالته »[1]

من خلال ما سبق، يتبلور لنا معنى الخطابة في التراث، التي تقوم على الإفهام أوّلاً والإقناع ثانيًا، فالإقناع هو المطلب الأساسي من الخطابات كما يتجسَّد التواصل كذلك من خلال الفعل وردِّ الفعل فلا اقتناع دون إقناع.

---

[1] عبد الهادي بن ظافر الشهري – استراتيجيات الخطاب- 449.

## III - مطابقة الكلام لمقتضى الحال

تراعي الـــبلاغة العربية عمومًا حال السامع، خاصة في الخطابة، وقد دعاه البلاغيون باسم (مقتضى الحال)، وهو « الاعتبار المناسب »[1]، ومعنى ذلك أن الخطيب يراعي المقام الذي يصاغ فيه كلامه، وقد حدّد السكاكـــي المقامات بقوله: « لا يخفى عليك أن المقامات متفاوتة، فمقام التشكّــر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام الـــتعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيـــب، ومقام الجـــدِّ في جميع ذلك يباين مقام الهـــزل »[2]

من خلال قول الـــسكاكي، يتبيَّـــن أنه على الخطيب أن يراعي مقـــام كلامه، فلا يكون جـــادًّا في موطن الهزل، ولا هزليًّـــا في موطن الجد، ولا مرغِّـــبًا في مقام الـــترهيب، وغير ذلك من المقامات الـــمختلفة، وفي ذلك يقـــول الـــجاحظ: « إذا أعطيت كل مقـــام حقّـــة، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك الـــمقام، وأرضيت من يعرف حقـــوق الكلام، فلا تهتـــمَّ لما فـــاتك من رضا الـــحاسد والعدو فإنه لا يرضيهمـــا شـــيء...»[3]، فالعرب قد ركـــزوا على الـــمقام، لأنه يساعد على التواصل وإفهام المخـــاطب.

ولم يمدح العرب مراعاة الـــمقام في النثر أو التواصل العادي فـــقط، بل مدحـــوه حتى عند الـــشعراء، ومن ذلك ما ذكره الـــحسن بن بشـــر الآمـــدي، وعلـــي بن عبد العزيـــز الجرجاني (توفي 366 هـــ)، أنَّ أمير المؤمنيـــن عمر بن الـــخطاب – رضي الله عنـــه- أثنـــى على زهيـــر بن أبـــي سلمـــى، بأنه كـــان لا يمدح رجـــلاً إلاّ بما في الـــرجال، ولا يمدح الـــعامة بما يمدح الـــخاصة، ولا يمدح الـــتجار وأصحاب الحـــرف بما يـــمدح به

---

(1) القزويني – الإيضاح- ص 33.
(2) السكاكي – المفتاح- ص 168.
(3) الجاحظ - البيان والتبيين- 116/1.

الصعاليــك وحملة السلاح[1].

ومقتضى الحال أو المقام هو ما يسميه المحدثون بــ (سياق الحال) أو (سياق المقام)، ومن أوضح تعريفاته هو: « كل ما يحيط باللفظ من ظروف تتصل بالمكان أو المتكلم أو المخاطب في أثناء النطق، فتعطي اللفظ دلالته، وتوجهه باتجاه معين، فهو إذن مجموعة العوامل والعناصر المحيطة بالنص من خارجه التي تعين على فهمه وتفسيره »[2]

من خلال الــتعاريف السابقة نستنتج أن مقتضى الحال/ المقام، يضمُّ كل ما يحيط بالعملية التواصلية من ظروف مكانية، والموقف الذي يصدر فيه الحدث الكلامي، إضافة إلى المتكلم والمخاطب معًا، لكن البلاغيين العرب ركزوا – غالبًــا- على الموقف وعبروا عنه بــ (المقام) كما ركزوا على حال السامعين، واشترطوا على الخطيب أن يوازن المعاني مع أقدار الــمستمعين ومقــاماتهم، حيث « ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينهــا وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلامًا، ولكل حالة من ذلك مقامًا، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات »[3]

ومن هنا يبدو أن العرب قد اهتموا بحال المخاطب وقسّــموه إلى (خواص/ عوام) دون أن ينقصوا من قيمة المعنى مهما كان المخاطب، وقد ورد هذا في صحيفة بشر بن المعتمر، حين مروره بإبراهيم بن جبلة بن مخرمة السكوني، وهو يعلّــم فتيانهم الخطابة، فقال: «...فكن في ثلاث منازل، فإن أولى الــثلاث أن يكون لفظك رشيقًا عذبًــا، وفخمًا سهلاً، ويكون معنــاك مكشوفًــا، وقريبًــا معروفًــا، إمَّا عند الــخاصة إن كنت للخاصّة

---

(1) ينظر (الآمدي) أبو القاسم، الحسن بن بشر –الموازنة بين أبي تمام والبحتري- ص 261. و(الجرجاني) علي بن عبد العزيز – الوساطة بين المتنبي وخصومه- ص 24.
(2) حسين حامد الصالح – التأويل اللغوي في القرآن الكريم- ص 128.
(3) الجاحظ - البيان والتبيين- 138/1-139، وينظر أيضًا في هذا المعنى، الصناعتين ص 153.

قصدت، وإمَّا عند العامة، إن كنت للعامة أردت، والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتّــضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصَّواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال »[1]

ورغم أن البلاغيين العرب لم يجعلوا الشرف حليف معاني الخاصة، ولا الاتضاع لمعاني العامة، إلاَّ أن تقسيمهم قائم على الطبقية بين الخاصة والعامة، سواءً أكان التقسيم سياسيًّا أم اجتماعيًّــا، لأن لكل طبقة ألفاظها ومعانيها التي تفهمها ولا يمكن أن تفهم غيرها، لذا على الخطيب ألاَّ « يستعمل ألفاظ الخاصة في مخاطبة العامة، ولا كلام الملوك مع الــسوقة، بل يعطي كل قوم من القول بمقدارهم ويزنهم بــوزنهم، فقد قيل: لكل مقام مقال »[2]، وتكون مراعاة المخاطبين واجبة من حيث استعمال مصطلحات لا يفهمها العامة أو إدراج ألفاظ لا تليق بمقام الخاصة، « فلا ينبغي أن يكون اللفظ عاميًّــا، وساقطًا سوقيًّــا، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبًا وحشيًّــا، إلاَّ أن يكون المتكلّــم بدويًّــا أعرابيًّــا، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الــوحشي من الناس، كما يفهم السوقيُّ رطانة السوقى، وكلام الناس في طبقات، كما أن الناس أنفسهم في طبقات »[3] فإذا وُجه الخطاب لغير أهله قطع التواصل والتفاهم قطعًا تامًّــا، ويصبح الخطاب لا جدوى من ورائه لأن الغاية من الخطابة الإفهام والإقنــاع، فلا إفهام حاصل ولا إقناع، ما لم يراع الخطيب مقامات المخاطبيــن، « فإذا كان موضوع الكلام على الإفهام، فالواجب أن تقسَّم طبقات الكلام على طبقات الناس، فيخاطب السوقي بكلام السوقى، والبدويُّ بكلام البدو... ولا يتجاوز عمَّــا يعرفه إلى ما لا يعرفه فتــذهب فائدة الكلام وتُعدم منفعة الخطاب »[4]، فلو افترضنا أن خطيبًــا وقف أمام جمع من السوقى، يخاطبهم بلغة عربية فصيحة بليغــة، ترتقي إلى كلام الخاصّــة من أهل العلم والبلاغة، لأصبح الــكلام بالنسبة إليهم من باب

[1] السابق 136/1.
[2] ابن وهب – البرهان- ص 153.
[3] الجاحظ - البيان والتبيين- 144/1.
[4] العسكري – الصناعتين- ص 39.

المسائـــل المغلقة التي لا تصل أذهانهم إلى فهمه وتحليله واستيعابه، وهنا ينقطع التواصل بين الخطيب ومستمعيه.

ويذهب ابن وهب إلى أنه على الإنسان العاقل أن ينزل إلى السوقـــي أحيانًا فلا يتوجه إليهم بكل رأيه، وأن يحاول التقرب من أحوالهم، لأن ذلك أولى بمقامهم فيقول: « أمَّا مجالس السوقة فليس يخلو من عاش بينهم من حضورها، ولابد للإنسان من ملابستهم فيها، فحق العاقل ألاَّ يلقاهم بكلِّ رأيه وبجميع عقله فيها، وأن يستعمل في مخاطبتهم ومعاملتهم بعض المقاربة لأحوالهم، فإن ذلك أولى بسياستهم »[1]، لذا لابد على الـــخطيب أن يتعرف على هوية المخاطبيـــن، حتى يستطيع أن يتعامـــل معهم بما يجب أن يعاملهم أو يخاطبهم به، لضمان الوصول إلى أذهانهم وقلوبهم.

وهذا ما ذهب إليه المحدثون في تعريفهم للمقام، إذ يقول ديكـــرو: « إننا نسمي مقام الخطاب مجموع الظروف التي نشأ الخطاب في وسطها (...) ويجب أن نفهم من هذا، المحيط المادي والاجتماعي الذي يأخذ الظرف فيه مكانه، والصورة التي تكون للمتخاطبين عنه، وهوية هؤلاء (...) وإننا لنعرِّف التداولية –غالبًا- بوصفها دراسة لهيمنة المقام على معنى العبارة »[2]

فالتداولية من خلال قول ديكرو تراعي المقام الذي قيلت فيه العبارة لأن المقام يهيمن على معناها، بحسب الغرض المقصود في ذلك المقام، وتلك الظروف التي قيلت فيها، وكما لاحظنا أنه ركّز كذلك على هوية المتخاطبين، فلابد لكل متكلّم أن يعرف مستمعه، ويعرف مكانتـــه الاجتماعية والسياسية لأن العبارة تتباين بتباين المقام، وتباين مكانة وصفة المستمع، فلو تلفظ الواحد منا بكلمة (قســـم) في ثانوية ونطق بذات اللفظ في الـــجامعة أو الـــمستشفى لتغير المعنى بحسب المكان، فلفظ (القسم) في الثانوية يقصد به

---

[1] ابن وهب – البرهان- 215.

[2] أوزوالد ديكرو – مقام الخطاب- مقال ضمن القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، تأليف (أوزوالد ديكرو جان ماري سشايفر)، ص 677.

(حجـــرة الدراسة أو مجموعة تلاميذ ينتمون إلى مستوى معين وشعبة محددة) مثل (قسم ثالثة آداب واحد) أما في الجامعة فتعني (المعهد الذي ينتمي إلى كلية) كــقسم اللغة الـــعربية وآدابها مثلا، وفي المستشفـــى فنجدها بمعنى (جناح)، كقسم الولادة، أو قسم الجراحة...إلخ

والعرب – وإن كانوا قسموا المقامات تقسيما طبقيًّـــا- فإنهم لم ينكروا أن تكلم أهل الـــبادية بما في سجيتهم، وما تعارفوا عليه، ولا ذوي اللبّ والـــعقل على قدر فهمهـــم[1]

كما أشار البلاغيون إلى أن توافق المعاني مع ما يليق به من اللفظ ويوافقه، ولا يكون الاعتماد فقط على الصحّة اللغوية، فـــ « ليس كل كلام صحيح صحة لغوية مطلقة، صالحًا لمقامه، أو موفقًا في آداء رسالته، في ظروفه وحاله، ففي هذه الحالة ينقص ضرب آخر من الصِّحَة، وهي صحّة الإيصال والتوصيل على وجه معيَّن يقابل أغراض الكلام، ويُعنَى بمقاصده، هذا الضرب الآخر من الصحَّة هو ما نسمِّيه (الصحة الخارجية)، وينعته علماء العربية بمطابقة الكلام لمقتضى الحال »[2]

وهكذا يصحُّ الكلام والإيصال، وينتج عنه تواصلاً بين المتكلّم والمخاطب، عندما يقيم المتكلِّم المعنى في نفسه، ويحدِّد الغرض الذي يقال فيه، والمقام الذي يجب له. وفي هذا يرى القرطاجني أنّ « اعتبار ما تكون عليه المعاني من صحة وكمال ومطابقة للغرض المقصود بها، وحسن موقع في النفس يكون بالنظر إلى ما المعنى عليه في نفسه، وبالنظر إلى ما يقترن به من الكلام، وتكون له به عَلَقَة، وبالنظر إلى الغرض الذي يكون الكلام منقولاً فيه، وبالنظر إلى حال الشيء الذي تعلّق به القول »[3]، وبذلك يكون القرطاجني، قد ألمَّ بكل العوامل الخارجية للكلام، فالمعاني حتى تكون صحيحة مطابقة للغرض الذي يقصده القائل، لابد أن تراعى فيها أربعة أشياء:

---

(1) ينظر ابن وهب – البرهان- ص 163.
(2) كمال بشر – فن الكلام- 80.
(3) القرطاجني – المنهاج- ص 130.

- الكلام نفسه، هل هو مؤدٍّ للغرض المقصود أم لا؟
- ما اقترن به الكلام، وما له علاقة به.
- الغرض الذي من أجله نقل هذا الكلام.
- حال الشيء الذي تعلّق به القول.

وهكذا تكون المعاني موافقة للمقام أو السياق الخارجي للقول.

كما وضّح علماء البلاغة أنَّ معرفة أقدار الألفاظ، وأقدار المعاني يكون بحسب الموقف الذي يقال فيه الكلام، حتى يأتي المتكلم للمعاني ألفاظًا تليق بها، ومعنى ذلك أن المتكلم لا يستطيع أن يعطي اللفظ حقه، من المعنى ولا أن يوفّر للمعنى اللفظ الذي يوافقه إلاَّ إذا راعى في ذلك مقام الكلام، « فالكلام يجري حسب الموقف الذي يحدث أو الذي يثير الكلام، ويثير اللغة، فهذا يعبِّر عن مشكلات، قضايا، أوضاع اجتماعية... أيًّا كانت »[1]، وهذه الإثارة للكلام أو اللغة، لابد أن تكون حسب المقام والموقف الذي يجري فيه الحدث الكلامي، لذا قالت العرب: (لكل مقام مقال)، فمن غير الكافي أن يعرف الإنسان ما يُقال وإنما يجب أن يعرف متى، وأين وفي أيِّ موقف يقوله، ولمن يوجهه، فالمتكلم لابد أن يتساءل إذا ما عرف ما يقوله:

- هل هذا هو الوقت المناسب؟
- هل هذا هو المكان المناسب؟
- هل هذا هو الموقف المناسب؟
- هل هذا هو الشخص المناسب لهذا القول؟

وبذلك تؤثر اللغة تأثيرًا كبيرًا في فهم الحقائق والأفكار، وتفسيرها بحسب الموقف الذي قيلت فيه، وحسب الظروف المحيطة بعملية التواصل، وفي هذا المضمار يقول

[1] عيسى عودة برهومة – تمثلات اللغة في الخطاب السياسي- ص 131.

بيير تراند راسل: « الكلمة تحمل معنًى غامضًا إلى درجة مَا، ولكن المعنى يكتشف فقط عن طريق ملاحظة استعماله، والاستعمال يأتي أوّلاً، وحينئذٍ يتقطَّر المعنى منه »[1]، فالمعنى في حدّ ذاته لا يحدّد للفظ إلاّ من خلال استعماله لغويًّا في الجملة، ومقاميًّا من خلال المقام الذي يطلق فيه، فالكلمات لها معانٍ متعدّدة، لكن المعنى المراد يُحدّد من خلال المقام، أو سياق الحال – كما يعبِّر عنه المحدثون- فــ « معنى الكلمات في المعجم ليس هو كلُّ شيء في إدراك معنى الكلام، فثمَّــة عناصر غير لغوية لها أثر كبير في تحديد المعنى، بل هو جزء أو أجزاء من معنى الكلام، ولا يمكن فهم الكلام على وجه اليقين بدونها، ومن تلك العناصر: شخصية المتكلّــم، وشخصية المخاطب، وما بينهما من علاقات، وما يحيط بالكلام ساعة التَّــكلُّم من ملابسات، وظروف ذات صلة به، ومن حضور يشهدون الموقف الكلامي »[2]، فمثلاً كلمة "المنبر" تعني في اللغة كلُّ مكان عالٍ يعتليه شخص ما ليتكلَّــمَ أمام جمهور من الناس، فإن قيلت هذه الكلمة في مسجد علمنا بأن المقصود منها منبر الخطبة، وأننا بصدد الكلام عن خطيب الجمعة، وإن قيلت في أمسية شعرية، علمنا بأن المقصود هو منبر الشعر، وأننا بصدد الكلام عن شاعر أو مقدم الأمسية، و « عندما نوسع الدائرة التي من خلالها نطل على ظواهر التواصل، ندرك أنَّ تواصلاً ما يحدد بكونه، كل إنتاج إنساني يمكن قراءته من مقامه، ولا يستمد معناه إلاَّ من هذا المقام »[3]

من خلال ما سبق ندرك أن علماء العربية قد ركزوا في التواصل على المقام ومطابقة الكلام لمقتضى الحال، ومقتضى الحال عندهم يحددونه وفق النقاط التالية:

- موازنة أقدار المعاني بأقدار المستمعين
- موازنة أقدار المعاني بأقدار الحالات

(1) أحمد مختار عمر – علم الدلالة- ص 62.
(2) حسين حامد الصالح – التأويل اللغوي في القرآن الكريم- ص 127.
(3) أليكس موتشيلي – جان أنطوان كوربلان – فاليري فيرنا نديز – المعنى والتسيق والسيرورات- ص 50.

- الموازنة بين الألفاظ وأقدار المستمعين
- معرفة المقامات والتفريق بينها، واختيار المعاني والألفاظ حسب المقام (تشكر، تهنئة...)
- حسن مؤاخاة معاني النحو على حسب الأغراض التي يصاغ فيها الكلام.

ويمكن تقسيم المقام إلى قسمين: خارجي وداخلي:

أ/ **الخارجي**: وهو كل ما هو خارج ذات المتكلم وعناصره هي:

- المتلقي:

1- طبقته العلمية والفكرية والاجتماعية والسياسة...

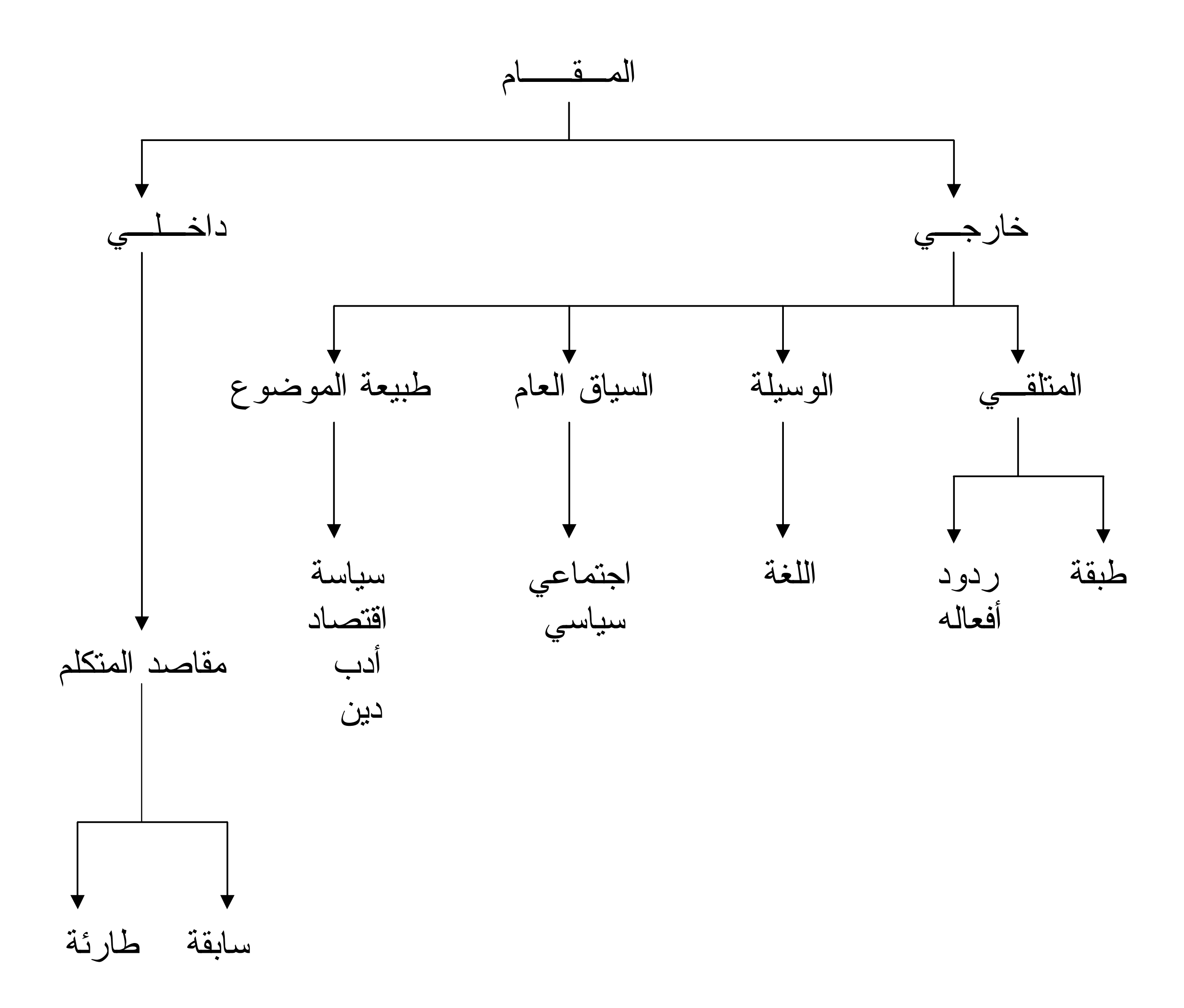
2- ردود أفعاله: وتشمل الرفض والقبول...

- وسيلة الاتصال: ويقصد بها اللغة، والوسيلة هي المشافهة أو المكاتبة.
- السياق العام: ويقصد به السياق الاجتماعي والسياسي...
- طبيعة الموضوع: قد تكون سياسية، اقتصادية، اجتماعية... ويراعى في ذلك المتلقي.

ب/ **الداخلي**: ويراعى فيه مقاصد المتكلم، وقد تكون سابقة أو طارئة.(1)

ويمكن تجسيد هذا التقسيم في المخطط التالي:

(1) ينظر: جميل عبد الحميد – البلاغة والاتصال- ص: 132-133-134-135.




مخطط أقسام المقام[1]

---

(1) السابق ، 133.

## IV - عيوب الكلام والتواصل

من المعلوم أن التواصل لابد أن يقوم على قـواعد صحيحة، حتى يفهم الـسامع من الـقائل مراده، ويستطيع الـتفاعل معه، وإلاَّ انقطع الـتواصل بينهما، وبما أنَّ العرب قد ركـزوا في الـتواصل الاجتماعي على الـخطابة فقد ركزوا كذلك في عيوب الـتواصل على الـنطق، والـفصاحة (فصاحة اللـفظ والكلام) واللحن، وما يتصل بشخصيـة الخطيب.

### أ/ ما يتصل بالنطـق:

وقد ذكـروا في ذلك سلامة النطق، واعتبـروا « أنَّ البيان يحتاج إلى... سهولة المخرج وجهـارة المنطق وتكميل الحروف...»[1]، فحين تأملنـا هذه الصفات الثلاثة نجد أن صحة المخرج وتكميل الحروف تفيدان سلامة الـنطق ووضوحه، فيكون لهما مردود سمعي يتمثّـلُ في صحة السمع ووضوحـه، لأن سوء السمع يؤدِّي إلى سوء الفهم، وصحة السمع ووضوحه تعينـان على صحة الـفهم الذي عليه مدار البيان العربي، أما (جهـارة المنطق)، فتفيـد شدّة وضوح النطق الذي يساعد على فهم الـسامع للقـول لذا أكـدوا على هذه الـصفة في الخطيب، حتى أنهم إذا وصفوا خطيبًـا بإعجـاب نسبـوا له هذه الصفة، « ذلك أن الـجهرة تخلع على الخطيب الهيبة في نفـوس جمهوره »[2]

واشترط ابن وهب في الـخطيب – حتى يصل إلى إفهام سامعيـه- «أن يكـون لسانه سالمًـا من العيوب التي تشين الألفـاظ، فلا يكون ألثغًـا، ولا يكون فأفـاءً ولا تمتامًـا، ولا ذا رتَّـة، ولا ذا حبسـة، ولا ذا لـفف، فإن ذلك أجمع لِما يُـذهب بهـاء

(1) الجاحظ - البيان والتبيين- 14/1.
(2) جميل عبد الحميد – البلاغة والاتصال- ص 77.

الكلام، ويهجن البلاغة وينقص حلاوة الـــنطق»[1].

وإذا ذهب بهاء الـــكلام، وهجنت الـــبلاغة، انقطع الـــتواصل أو قلّ حظه على الأقل. وقد ذكر الـــجاحظ ما يقلل من التواصل أو يمنعه بقولـــه: « والذي يعتري اللـــسان مما يمنع من الـــبيان أمور: منها اللـــثغة التي تعتري الصبيان »[2]، ولـــثغة الراء تكون بالـــغين والذال، والياء، فإذا نطق الألـــثغ كلمة (رجـــل) فتخـــرج في أحد الأشكـــال الـــتالية:(غجـــل/ ذجـــل/ يجـــل)، « والـــغين أقلها قبحًـــا وأوجدهـــا في كبار الـــناس وبلغائهـــم، وأشرافهم وعلمائهـــم، وكانت لـــثغة محمـــد بن شبيـــب المتكلم بالـــغين، فـــإذا حمـــل نفسه وقـــوّم لسانه أخرج الراء، وقد ذكره في تلك أبو الـــطروق الضَّـــبِّي فقال:

عليم بإبدال الحروف وقامع ù ù لكلِّ خطيب يغلب الحق باطله »[3]

أما اللـــكنة فهي أيضا من معوقات التواصل، وقد ركز عليها الـــجاحظ وأورد لها أمثلة عدّة مما جمعه، ومنه قول مسلم بن ســـلاّم: « حدّثـــني أبان بن عثمان قال: كان زياد النبطي، أخو حسّان النبطي شديد اللكنة، وكان نحويًّـــا... ودعا غلامه ثلاثـــا، فلما أجابه قال: فمن لدن دأوتك إلى أن قلت لَبَّـــيْ ما كنت تصنـــأ ؟ يريد: من لدن دعوتك إلى أن أجبتنـــي، ما كنت تصنـــع »[4]، فمثل هذا القول يجعل السامع يقف محتارًا أمام معناه، فلن يصل إليه إلاّ بعد جهد من التفكير والتفسير.

كما حدّد العرب معنى البلاغة بأنه الإفهام، ولا يكون ذلك إلاّ إذا كان المتكلّم سليم النطق، ومن ذلك ما أورده الجاحظ: «حدّثنـــي صديق لي قال: قلت للعتابي: ما الـــبلاغة؟

---

(1) ابن وهب – البرهان- ص 171.
الفأفاء: الذي يكثر ترديد الفاء
الرتة: العجلة، وقيل قلب اللام ياء
التمتام: الذي يكثر ترديد التاء
اللفف: ضعف وعيٌّ في الكلام
(2) الجاحظ - البيان والتبيين- 71/1.
(3) نفسه 15/1.
(4) نفسه 213/2.

قـال: كل من أفهمك حاجتـه من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليـغ... قـال فقلـت له: قد عرفت الإعـادة والـحبسة، فـما الاستعانة ؟ قـال: أما تراه إذا تحـدّث قـال عنـد كل مقطع كـلامه: يا هنـاه، ويا هـذا، ويـا هيه، واسمع مني، واستمـع إلَيَّ، وافهـم عَنـِّى، أولست تفهـم، أولست تعقـل، فهذا كلـه وما أشبه عـيٌّ وفسـاد»[1]. مما يقطع سبيل الفهم والتواصل، ويحدث الملل لدى السامع.

وكل ما رصده البلاغيون من عيوب نطقية للمتكلم من شأنه أن يعيق التواصل فلا يصل المعنى تامًّا إلى السامع.

---

(1) السابق 113/1.

**ب/الفصاحة:**

لقد وضع العرب شرط الفصاحة حتَّى تتمَّ عملية التواصل، وهي سمة لكلِّ من تكلَّم فأفصح، أي أبان وأوضح عن مقاصده، وتكون الفصاحة في اللفظ وفي الكلام:

**1/ الفصاحة في اللفظ:** حتى يكون اللفظ فصيحًا، لابد أن يكون خلـــوًا « من تنافر الأحرف والغرابة ومخالفـــة القياس »[1] على حدِّ قول القزويني. وفيما يلي توضيح لذلك:

1-1/ تنافر الأحرف: وتكون الكلمة متنافرة إذا ثقلت على اللسان، وتعسّر النطق بها نحو كلمة: (مستشزرات) الواردة في بيت لامرئ القيس (توفي حوالي80 ق هــ-544م) إذ يقول:

غدائره مستشزرات إلى العلا ❊ تضلُّ المدارى في المشيِّ ومرسلِ[2]

مما يجعل كلام المتكلّم متقطّعًا، بسبب ثقله على لسان صاحبه، ومنه يشوِّش على فهم المتلقي، ولا يستطيع بذلك الخطيب أن يشد انتباه سامعيه فينقطع التواصل.

2-1/ الغرابة: ويكون اللفظ غريبًـــا إذا كان غير مألوف الاستعمال، وذلك يعتبر أيضًـــا من معوقات التواصل، ومثالـــه: (تكأكأتـــم – افرنقعـــوا). والغريب إمَّا حسن، وإمَّا قبيح؛ « فـــالغريب الحسن هو الذي لا يعابُ استعماله على العرب، لأنه لم يكن وحشيًّـــا... ومثل ذلك: شـــرنبث – واشمخـــرَّ – واقمطـــر...، والـــغريب القبيح يعاب استعماله مطلقًـــا، ويسمى الـــوحشيُّ الغليظ، وهو أن يكون مع كونه غريب الاستعمال، ثقيلاً على السمع، كريهًـــا على الذوق، ويسمى المتوَعّـــر أيضًا »[3]، لأنه يعيق وصول السامع لفهم مراد المتكلم ومقاصده.

---

[1] القزويني – تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع- ص 38.
[2] امرؤ القيس – الديوان- ص 115.
وقد أورد القزويني في التلخيص، الشطر الثاني من البيت برواية أخرى:
....................................... ❊ تضلُّ العقاص في مثنى ومرسلِ
(التلخيص، ص 38).
[3] سعد الدين التفتازاني – المطول (شرح تلخيص المفتاح)- ص 118-119.

1-3/ مخالفة الـــقياس: والمقصود بذلك مجيء الكلمة على خلاف ما ورد عند العرب « نحو قول أبـــي النجم:

الـــحمد لله الـــعلّي الأجـــلل ù ù الـــواحد الـــفرد القديـــم الأوّلِ

فقولـــه (الأجـــلل) فيه مخالفة للقاعدة الصرفية، لأنه فـــكّ الإدغام، والأصل عدم فكّـــه، فتكـــون (الأجـــلّ) »[1]

وهذا الخروج ومثله عن القواعد الصرفية، قد يشغل ذهن المتلقي مما يسبب عدم انتباهه لمخاطبه، وبذلك قد ينقطع التواصل جزئيًا – على الأقل-

1-4/ الـــكراهة: وهي كراهـــة اللفظ في السمع. ولم يذكر الـــقزويني هذا الـــشرط مفردًا، لأنه عدّه في نطاق الـــغرابة، حيث يقول: « وذلك لأن الكراهة في السمع تدخل في نطـــاق الغرابة، فلا حاجة لإفرادها في حيز خاص »[2] ومثالها لفظ (الجِـــرِشَّى) ومقصود بـــه (الـــنفس). وهذا اللفظ ثقيل على السمع كريه، وهو غريب أيضًا، قد يقطع التواصل بين المتخاطبين.

**2/ الـــفصاحة في الكلام**: لكي يوصف الـــكلام بالفصاحة، لابد أن يكون خلـــوًا « من ضعف الـــتأليف، ومن تنافـــر الكلمات، ومن التعقيد »[3] فـــإذا كان اللفظ فصيحًا، وكذا الكلام، يستطيع المتلقي فهم مقاصد مخاطبه. وفيما يلي تفصيل ذلك:

2-1/ ضعف التأليف: ومعنى ذلك، مخالـــفة القانون النحوي « مثل عودة ضمير متقدم على لفظ متأخر، نحو: "ضرب غلامه زيدًا"، فالهاء في (غلامه) تعود على (زيدًا) المتأخر لفظًا »[4]، وقد يشوّش ذلك الفهم عن جمهور السامعين فينقطع الفهم والتواصل. لأن المعروف في اللغة العربية أن يعود الضمير على لفظ تقدمه، وكان الأولى أن يقال:

---

(1) القزويني – التلخيص- ص 39.
(2) نفسه ص 40.
(3) نفسه ص 40.
(4) نفسه ص 40.

«ضرب زيدًا غلامه»، حتى تعود الهاء في (غلامه) على (زيدا) الواقع مفعولاً به.

2-2/ تنافــر الكلمات: وهو أن يكون في الكلمات ثقل على اللسان، وهو نوعان: متنـــاهٍ في التنافر، وأخفُّ تنافــرًا، ومثالهما:

« قــول أحدهــم:

وقبــر حربٍ بمكان قفــر ù ù وليس قــرب قبر حرب قبــر

وقول آخر:

كريم متى أمدحه أمدحه والورى ù ù معي إذا ما لمته لمته وحدي

وهو أخفُّ تنافرا مما قبله »[1]

2-3/ التعقيد: وهو: « أن لا يكون الكلام ظاهرًا للدلالة على المراد لخلل يقع في النظم أو في الانتقال »[2]، فإذا وقع خلل في النظم أو الانتقال يصبح الكلام غامضًا، بعيدًا عن فهم السامع له. وهو نوعان:

* التعقيد في النظم: وهو ألاّ يكون الترتيب وفق المعاني، بسبب التقديم والتأخير أو الحذف أو الإضمار مما يجعل المراد صعب الفهم.[3]

* التعقيد في الانتقال: ويكون عن طريق انتقال الذهن من المعنى الأوّل المفهوم إلى المعنى الثاني المقصود، وهذا مما يعيق فهم القول، ويعجز المتلقي عن الوصول إلى مراد الملقي، مما يقف عائقًا في العملية التواصلية، كقول العباس بن الأحنف:

سأطلب بُعد الدّار عنكم لتقربوا ù ù وتسكب عيناي الدموع لتجمدا [4]

ومفاد ما سبق، أن الخطيب لو عَلِقتْ به كل هذه العيوب أو بعضها فإن جمهور السامعين سيملّ كلامه – لا محالة- مما يجعل التواصل ينقطع بينه وبين مستمعيه.

---

(1) السابق ص 40.
(2) نفسه ص 40.
(3) ينظر: التفتازاني – المطول- ص 122.
(4) القزويني – التلخيص- ص 40.

ج/ اللّحن:

وأمَّا اللحن فهو الوجه الآخر من معوقات التواصل من عيوب الكلام، وقد قال فيه عبد الملك بن مروان: « "اللحن هجنة على الشريف والعجب آفة الرأي"، وكان يقال: اللحن في المنطق، أقبح من آثار الجدري على الوجه »[1]

ويبدي ذلك الاهتمام الكبير الذي أولاه العرب للنطق السليم، وتتبع قواعد النحو، فلا يـُفسد المرء منطقه بفساد لغته، فلا يفهمه سامعه، ومما يورده الجاحظ كمثال على ذلك: « سمع أعرابيٌّ مؤذِّنًا يقول: أشهد أنَّ محمدًا رسولَ (بالنصب) الله، فقال: ماذا يفعل؟»[2]، وكان الأحرى به أن يرفع لفظ (رسولُ) حتى يتم الإخبار، مما جعل الأعرابي يستفهم عن فعل محمد ﷺ، لأنَّ الإخبار لم يتم، ومازال ينتظر صنيعه، وهنا يظهر عدم فهم الأعرابي لكلام المؤذن جرّاء لحنه.

بل إن اللحن –أحيانًا- تكون عواقبه أسوأ، حسب ما أورده الجاحظ عن أبي الحسن حيث يقول: « كان سابق الأعمى يقرأ: "الخالق البارئ المصوَّر"، فكان ابن جابان إذا لقيهُ قال: "يا سابق ما فعل الحرف الذي تشرك بالله فيه؟ وكان يقرأ: "ولا تَنكحوا المشركين حتى يؤمنوا" قال ابن جابان، "وإن آمنوا أيضًا لن ننكحهم »[3]، وكان يريد قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْ﴾[4]، ببناء لفظة (تنكحوا) للمجهول، أي لا تُزَوِّجوهم بناتكم، وكان سابق ينطقها ببنائها للمعلوم بمعنى لا تتزوَّجوهم.

وإن كان قول ابن جابان فيه من التهكُّم والسخرية ما فيه، إلاَّ أنَّه يوضِّح ما للحن من أثر في قطع التواصل قطعا كليًّا.

---

(1) الجاحظ – البيان والتبيين- 216/2.
(2) نفسه 239/2.
(3) نفسه 219/2.
(4) سورة البقرة، الآية 221.

**د/ ما يتصل بالخطيب:**

لم تَعِبْ العرب الإطالة في الخطبة وإنما عابوا على من لا يحسن تخيُّـــر موطنها، ولا جمهور المتلقين، لذا كانت الإطالة عيبًـــا إن لم تكن في مكانها، كما « ينبغي للخطيب ألاَّ يستعمل في الأمر الكبير، الكلام الفطير الذي لم يخَمِّـــره التدبّـــر والتفكير »[1]، فلابد أن يعطي الأمور قدرها، وأن يتدبر الأمر ويتفكَّـــر فيه قبل النطق به أمام جمهـــور السامعين، لاسيما إن كان الأمر المتكلم فيه يستحق ذلك، ولابد أن يكون سليقيًّـــا غير متكلّـــف في بلاغته ولا متزيِّـــد في بيانه، فإن « مدار الـــلائمة، ومستقر المذمة حيث رأيت بلاغة يخالطها التكلّـــف وبيانًـــا يمازجه التزيُّـــد »[2]

أما فيما يخص شخص الخطيب في ذاته، مما يعيق الـــتواصل، فقد جمع ذلك الجاحظ في قولـــه: « تلخيص المعاني رفق، والاستعانة بالغريب عجز، والـــتشادق من غير أهل البادية بغض، والـــنظر في عيون الناس عيٌّ، ومسُّ اللّـــحية هَـــلَكٌ والخروج مما عليه أوّل الكلام إسهـــاب »[3]

ومجمل هذه العيوب: الاستعانة بالغريب – التشادق من غير أهل البادية – النظر في عيون الناس- مسُّ اللحية - الخروج عمَّا بُدِيء به الكلام، وكل تلك عيوب في الخطيب ذاته، قد تنفّر السامع منه، فالاستعانة بالغريب تغلق أبواب الفهم أمام المتلقي، والتشادق صفة غير أصيلة في أهل الحضر لذا لم يعبه على أهل البادية، أما النظر في عيون الناس، وكأنه تساؤل للمتلقي: هل فهمت ما أقول؟ أو شكٌّ من الملقي في صحَّة حديثه أو طريقة توصيله للمعاني إلى ذهن متلقيه. وهذا قد يقطع التواصل أيضًا، ومسُّ اللحية، دال على اضطراب الخطيب، وعلى عدم تمكُّنه، وتفكيره فيما سيأتي، والخروج عمَّا بُدِئ به الكلام يشوِّش ذهن السامع، وبذلك يشوِّش التواصل أيضًا.

(1) ابن وهب – البرهان- ص 170.
(2) الجاحظ - البيان والتبيين- 13/1.
(3) نفسه 44/1.

ويضيف الـــجاحظ: « أنشدني سحيـــم بن حفص في الخطيب الذي تعرض النحنحة والسعلة... فقال:

نعـــوذ بالله من الإهمـــال ù ù ومن كلام الـــغرب في المقـــال

ومن خطيب دائم السعال»[1]

نـــلاحظ أن الجاحظ أضاف لما سبق خصلتين مذمومتيـــن في الـــخطيب تقطع الـــتواصل هما: النحنحـــة والسعلـــة، وقد قال بشر بن المعتمر:

ومن الكبائـــر مقول متتعتـــع ù ù جمَّ الـــتتحنح متعب مبهـــور[2]

وهكذا فإن البلاغييـــن العرب، قد ركزوا على عيوب الـــكلام من جميع جوانبه وإن لم يسهبوا في بعضهـــا، إلاَّ أنهم لم يتجاوزوها، وبينوا انقطـــاع الفهم وعدم استقامة الـــبيان، وخروج الـــكلام عن المعنى المراد من طرف الـــقائل (الخطيب)، إذا وردت هذه الـــعيوب فيـــه.

(1) السابق 40/1.
(2) نفسه 41/1.

# الخاتمة

بعد هذه الجولة في التواصل والتراث البلاغي العربي، نستطيع الوصول إلى أن العرب في تراثهم اللغوي والبلاغي، قد تنبّهوا إلى معنى التواصل من خلال تعريفهم اللغة، حيث أعطاها ابن جني من خلال تعريفه سمة الجماعية، كما وضح ابن سنان وظيفة اللغة بأنها للتبليغ، وتربط بين المتكلم والسامع عن طريق الفهم والإفهام.

كما حدد العرب عناصر التواصل، فتوصّلوا إلى أن الملقي (المتكلم) والمتلقي (السامع) – باعتبارهما العنصرين الأساسيين في العملية التواصلية- يتبادلان بينهما رسالة (خبر) عن طريق قناة وهي (اللغة) أو ما يقوم مقامها كالإشارة باليد أو الإيماء بالرأس وغيرهما، ولا يكون ذلك إلاّ في سياق معيّن (مقتضى الحال/ المقام)، وحتَّى يكون الفهم والإفهام تامًّا لابد أن يتعارف المتكلم والسامع على شفرة معينة، وذلك ما سمّاه ابن سنان بـــ (المواضعة)... وبذلك تكتمل عناصر التواصل السّتَّة.

كما توصل العرب في تراثهم البلاغي إلى الوقوف على أشكال التواصل، وهي: التواصل الذاتي الذي يقع في النفس فيكون الفرد هو المتكلم والسامع معًا، عن طريق الحوار الدّاخلي الذي يقيمه في نفسه، وقسَّمه ابن وهب إلى وجوه هي: الاعتبار، ويسميه الجاحظ (النصبة) ثم الاعتقاد، وقد يقع التواصل الذاتي أيضًا عن طريق الصمت، ولا يعنون بذلك الصمت السلبي، وإنما الصمت الذي تكون غايته الإنصات إلى المخاطب، حتى يقيم السامع تواصلاً ذاتيًا أخذًا وردًّا في نفسه قبل أن يشارك في العملية التواصلية المشتركة بين متكلم وسامع حاضرين.

أمّا الشكل الثاني فهو التواصل الشخصي، الذي يكون بين متخاطبين حاضرين، وهذا ما سمّوه "البيان باللسان" واستدلّوا بذلك على أن اللسان هو ترجمان ما يقع في النفس، كما قسّموا الكلام إلى خبر وإنشاء ثم بينوا أغراض الخبر بحسب مقصدية المتكلّـــم، وأضربه

بحسب حالة السامع، وقسموا الإنشاء إلى حقيقي وغير حقيقي، وبه يعرف السامع قصد المتكلم، وهذا ما وصل إليه الدرس التداولي الحديث أو ما سمّاه أوستين (قوّة الإنجاز).

ولم يكتف العرب بذلك، بل اهتموا أيضًا في هذا الشكل التواصلي بالإشارة، وأولوها اهتمامًا كبيرًا باعتبارها شريكة اللفظ، سواءً أكانت مصاحبة له أم منفردة، نائبة عنه، وقد سمّاها ابن وهب (الوحي) في حين أن غيره من البلاغيين أطلق عليها اسم (الإشارة)، كما ركزوا على عناصر التواصل الأخرى كالسياق باعتباره عنصرًا مساعدًا لإقامة التواصل واستمراره.

وإذا كانت العملية التواصلية تقوم على الإفهام، فإنها تقوم على الإقناع أيضًا، حيث يعتبر هذا الأخير غاية من غايات التواصل وبذلك تكون علاقة الملقي بالمتلقي علاقة (فهم وإفهام/ إقناع واقتناع)، حيث يستدرج الملقي متلقيه ويستميله بعدة طرق من أجل إقناعه.

أمّا التواصل الاجتماعي، فقد درسوه من جانب الخطابة، باعتبارها أفضل ممثل له، فالخطابة تقوم على إفهام الخطيب جمهور السامعين بشرط أن يحدِّث القوم بما يفهمون، وحسب مكانتهم الاجتماعية والعلمية، وحسب المقام الذي يقال فيه الكلام، وهذا ما سمّوه (مقتضى الحال)، فمن شروطهم موافقة الكلام لمقتضى الحال، وفي ذلك ركز البلاغيون على ما يعيق عملية التواصل، واعتبروه عيبًا، ويتعلق ذلك بسلامة نطق الخطيب، وخلُوِّه من العيوب، كما يتعلّق أيضًا باختياره اللفظ الفصيح والكلام الفصيح، أو من جانب اللّحن، وكل ذلك إذا وجد في الكلام فإنه يعيق عملية الفهم والإفهام، وبذلك يعيق العملية التواصلية، إضافة إلى شخصية الخطيب في حدّ ذاته، فكلما كانت شخصيته أقوم، وكان لبّاسًا ذا هيئة تستقطب الأنظار، فإنه سيستقطب الأذهان أيضًا، ويشدُّ الأبصار استعدادًا لما سيقوله، ومنه يكون المخاطب (السامع) مستعدًّا قبلاً لفهم الخطيب.

وأخيرًا نستطيع القول أن البلاغة العربية قد توصَّلت إلى أشكال التواصل فعلاً بكل عناصرها.

# قائمة المصادر والمراجع

* القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

**I الكتب:**


1- إبرير (بشير)– دلائل اكتساب اللغة في التراث اللساني العربي- مطبعة المعارف (عنابة) ط1- 2007.

2- ابن الأثير (ضياء الدين)– المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر- قدّمه وعلّق عليه: أحمد الحوفي وبدوي طبانة- دار النهضة مصر للطباعة والنشر- ط2 – دت.

3- أرمينكو (فرنسواز)– المقارنة التداولية- ترجمة: سعيد علّوش- مركز الإنماء القومي (المغرب)- دط - دت.

4- استيتية (سمير شريف)– اللسانيات (المجال – الوظيفة – المنهج)- عالم الكتب الحديث – ط1- 2005.

5- الآمدي (أبو القاسم الحسن بن بشر)– الموازنة بين أبي تمام والبحتري- مكتبة الخانجي (القاهرة) ط1- 1972.

6- امرؤ القيس (حندج بن حجر)- ديوان امريء القيس- ضبطه وصححه: مصطفى عبد الشافي- دار الكتب العلمية (لبنان)- ط5- 2004.

7- أوستين (جون)- نظرية أفعال الكلام العامة (كيف ننجز الأشياء بالكلام)- ترجمة: عبد القادر قينيني- أفريقيا الشرق (الدار البيضاء- المغرب)- دط- 1991.

8- أوكان (عمر)– اللغة والخطاب- إفريقيا الشرق (المغرب) – دط- 2000.

9- آيت أوشان (علي)– النص والسياق الشعري (من البنية إلى القراءة)- مطبعة النجاح الجديدة (المغرب) ط1 - 2000.

10- براون (ج ب) وبول (ج)– تحليل الخطاب- ترجمة: لطفي الزليطي، ومنير التريكي – النشر العلمي والمطابع- جامعة الملك سعود (المملكة العربية السعودية) دط – 1997.

11- بشر (كمال)- فن الكلام- دار غريب – دط- 2003.

12- بلانشيه (فيليب)- التداولية من أوستين إلى غوفمان- ترجمة: صابر الحباشة- دار الحوار للنشر والتوزيع (اللاذقية- سوريا)- ط1- 2007.

13- بلخير (عمر)– تحليل الخطاب المسرحي- منشورات الاختلاف – ط1- 2003.

14- بليث (هنري)- البلاغة والأسلوبية (نحو نموذج سيميائي لتحليل النص)- ترجمة: محمد العمري- إفريقيا الشرق (المغرب) – ط2- 1999.

15- بومزبر (الطاهر)– التواصل اللساني والشعرية- منشورات الاختلاف-ط1– 2007.

16- التفتازاني (سعد الدين)– المطوّل (شرح تلخيص المفتاح)– صحّحه وعلّق عليه: أحمد عزُّو عناية- دار إحياء التراث العربي – ط1- دت.

17- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)– البيان والتبيين- تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون– دار الفكر- ط2– دت.

18- جاكبسون (رومان)– الاتجاهات الأساسية في علم اللغة- ترجمة: علي حاكم صالح، وحسن ناظم- المركز الثقافي العربي (المغرب) ط1- 2002.

19- جان كالفي (لويس)– علم الاجتماع اللغوي- ترجمة: محمد يحياتن- دار القصبة للنشر (الجزائر)- دط- 2006.

20- الجرجاني (عبد القاهر)– أسرار البلاغة- تحقيق: محمد الاسكندراني و م مسعود – دار الكتاب العربي (لبنان) دط- 2005.

21- الجرجاني (عبد القاهر)– دلائل الإعجاز- تحقيق: عبد الحميد هنداوي- دار الكتب العلمية (لبنان) – ط1- 2001.

22- الجرجاني (علي بن عبد العزيز)– الوساطة بين المتنبي وخصومه- مطبعة عيسى البابي الحلبي (القاهرة) ط1- 1972 .

23- ابن جني (أبو الفتح عثمان)– الخصائص- تحقيق: محمد علي النجار- دار الهدى للطباعة والنشر (لبنان) دط- 1952.

24- حمُّو الحاج (ذهبية)– لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب- دار الأمل للطباعة والنشر – دط- 2005 .

25- خرما (نايف)– أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة- سلسلة عالم المعرفة - دط- دت.
26- الخفاجي (ابن سنان)- سر الفصاحة- دار الكتب العلمية (لبنان)- ط1- 1982.
27- دايك (فان)– النص والسياق- ترجمة: عبد القادر قنيني- إفريقيا الشرق (المغرب) – دط- 2000.
28- ديكرو (أوزوالد) وسشايفر (جان ماري)- القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان – ترجمة: منذر عياشي- المركز الثقافي العربي (المغرب)- ط2- 2007.
29- الراجحي (عبده)– اللغة وعلوم المجتمع- دار النهضة العربية (لبنان)-ط2- 2004.
30- السكاكي (أبو يعقوب)- مفتاح العلوم- تحقيق: نعيم زرزور- دار الكتب العلمية (لبنان)- ط1- 1983.
31- سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قَنْبَرْ)- كتاب سيبويه- تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون- دار الجيل (بيروت-لبنان)- ط1- دت.
32- سيرل (جون)- العقل واللغة والمجتمع- ترجمة: سعيد الغانمي- منشورات الإختلاف- ط1- 2006.
33- شرف (عبد العزيز)- علم الإعلام اللغوي- الشركة المصرية العالمية للنشر (لوجمان)- ط1- 2000.
34- الشهري (عبد الهادي بن ظافر)- استراتيجيات الخطاب (مقاربة تداولية)- دار الكتاب الجديدة المتحدة – ط1- 2004.
35- الصالح (حسن حامد)- التأويل اللغوي في القرآن الكريم- دار بن حزم (لبنان) - ط1- 2005.
36- صحراوي (مسعود)- التداولية عند العلماء العرب- دار الطليعة (لبنان)- ط1 - 2005.
37- صولة (عبد الله) الحجاج في القرآن الكريم، وأهم خصائصه الأسلوبية- دار الفارابي (بيروت)- ط2- 2007.

38- عبد البديع (لطفي)– التركيب اللغوي للأدب- الشركة المصرية العالمية للنشر (لوجمان)- مكتبة لبنان (ناشرون)- ط1- 1997.
39- عبد الحميد (جميل)- البلاغة والاتصال- دار غريب للطباعة والنشر- دط- دت.
40- عبد الحميد (محمد)- الاتصال في مجالات الإبداع الفني الجماهيري- عالم الكتب (مصر)- دط- 1993.
41- عبد الرحمان (طه)- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام- المركز الثقافي العربي (المغرب)- ط2- 2000.
42- عبد الرحمان (طه)- اللسان والميزان (أو التكوثر العقلي)- المركز الثقافي العربي (المغرب) ط2-2000.
43- العسكري (أبو هلال)- الفروق في اللغة- تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة- دار الآفاق الجديدة (بيروت)- ط4- 1980.
44- العسكري (أبو هلال)- الصناعتين- تحقيق: مفيد قميحة- دار الكتب العلمية- ط1 - 1981/ ط2- 1989.
45- عكاشة (محمود)- خطاب السلطة الإعلامي- الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي (القاهرة)- ط1-2005.
46- عمر (أحمد مختار)- أنا واللغة والمجتمع- عالم الكتب- ط1-2002.
47- عمر (أحمد مختار)- علم الدلالة- عالم الكتب- ط2-2002.
48- عيسى (علي راشد)- مهارات الإتصال- كتاب الأمَّة- عدد 103-ط1-2004.
49- ابن قتيبة الدينوري (أبو محمَّد عبد الله بن مسلم)- أدب الكتاب- تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد- المكتبة التجارية (القاهرة) دط- 1355هـ.
50- القرطاجني (حازم)- منهاج البلغاء وسراج الأدباء- تحقيق: محمد الحبيب خوجة - دار الغرب الإسلامي (لبنان) ط3- 1986.
51- القزويني (جلال الدين محمد بن عبد الرحمن)- الإيضاح في علوم البلاغة- دار مكتبة الهلال (بيروت)- ط2- 1992.

52- القزويني (جلال بن محمد بن عبد الرحمن)- تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع- قرأه وكتب حواشيه وقدّم له: ياسين الأيُّوبي- المكتبة العصرية للطباعة والنشر (بيروت) ط1- 2002.

53- كشَّاش (محمد)- اللغة والحواس- المكتبة العصرية للطباعة والنشر (بيروت) ط1 -2001.

54- الكوّاز (محمد كريم)- البلاغة والنقد- الانتشار العربي(بيروت) ط1- 2006.

55- المتنبي (أبو الطيب أحمد بن الحسين)- الديوان- دار صادر (بيروت/ لبنان) دط - 2006.

56- مرتاض (عبد الجليل)- اللسانيات الجغرافية في التراث اللغوي العربي- دار الغرب للنشر والتوزيع- دط- دت.

57- مرتاض (عبد الجليل) اللغة والتواصل- دار هومة (الجزائر) – دط- 2003.

58- معتوق (أحمد محمَّد)- الحصيلة اللغوية- سلسلة عالم المعرفة – دط- 1996.

59- مفتاح (محمد)- التلقي والتأويل- المركز الثقافي العربي (المغرب)- ط2- 2001.

60- مهيبل (عمر)- إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة- منشورات الاختلاف- ط1- 2005.

61- ابن وهب الكاتب (أبو الحسن اسحاق بن إبراهيم بن سليمان)- البرهان في وجود البيان- تقديم وتحقيق: محمد شرف- مطبعة الرسالة- دط- دت.

**II- الرسائل الجامعية :**

1- حمَّام (بلقاسم)- آليات التواصل في الخطاب القرآني- أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه- جامعة الحاج لخضر- باتنة (الجزائر) 2005 .

**III- المجلات والدوريات :**

1- مجلة البحوث والدراسات الجامعية المركز الجامعي بالوادي- عدد4- يناير 2007.

2- مجلة عالم المعرفة- المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- دولة الكويت- المجلد 34- مارس 2006.

3- مجلة عالم المعرفة- المجلد 36- 2007.

4- مجلة العرب والفكر العالمي- مركز الإنماء القومي- العدد05- شتاء 1989.

5-مجلة علامات- عدد 21- 2004.

6-مجلة فصول- مجلة فصلية تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب- عدد 60 - صيف/ خريف 2002.

# فهرس الموضوعات

**الموضوع** **الصفحة**